الاندلسى أحد خدم القائم بحانه وهي المرية من الاندلس محدثة ومدينة الزهراء بناها عبد الرحمن بن محمد خط فيها الاسواق كما قال ابن حوقل وابتنى الحمامات والخانات والقصور والمتنزهات واجتلب الى ذلك بناء العامة وأمر مناديه بالنداء الا من أراد أن يبنى داراً أو يتخذ مسكناً بجوار السلطان فله أربعمائة درهم فتسارع الناس الى العمارة فتكاتفت وتزايدوا فيها فكادت أن تتصل الابنية بين قرطبة والزهراء .

هذا ما التقطناه فى هذه العجالة ولعل بعض الباحثين يتوسعون فى هذا الموضوع فى رسالة على حدة يذكرون فيها جميع ما أقامه العرب من الامصار والقرى وأعمال العمران كالطرق والجسور والانهار والترع وغير ذلك مما يفيد فى تصور المدنية العربية ويدعو الاخلاف الى التطريس على آثار الاسلاف

سماع الالحان[1]

فن الغناء نشأ مع البشر منذ طفوليتهم وتدرج فى درجات العلو ودركات الهبوط بحسب ارتقاء الامم . ولقد كان له شأن وأي شأن عند الامم الراقية فى القديم على ما دلت عليه روايات التوراة والصور التى وجدت فى النواويس المصرية والنقوش البارزة فى قصور نمرود وخراساباد حيث مثلوا الموسيقيين[2] والمغنين وأدوات الطرب كالشبابة والبوق والصنج والجنك والعود وغيرها . ومزامير داود مشهورة مذكورة .

---

(١) نشرت بالمجلد الثامن من مجلة المقتبس

(٢) فى لفظ الموسيقى كما فى سفينة الملك لمحمد بن اسماعيل بن عمر شهاب الدين لفتان احداهما موسيقى بمثنتين تحتيتين بينهما قاف مكسورة والاخرى موسقي بحذف الياء الاولى وعلى كل من اللغتين هو بضم الميم وسكون الواو وكسر السين المهملة كلمة يونانية معناها علم النغمات والالحان وكان هذا هو الاصل فيه ثم صار علماً على هذا العلم فى سائر اللغات الا انه قد اعتراه تحريف فى لغة الافرنج حيث قالوا موزيكا بابدال السين زاياً والقاف كافاً وفتحوا الكاف نظراً الى ما سمعوه من عوام الناس اذهم يعبرون عنه بموسيقا بفتح القاف فان قلت ان خواص علماء هذا الفن يعبرون عن هذا اللفظ بعبارات مختلفة أيضاً قلت نعم غير انها اختلفت لاختلاف معانيها فانهم يعبرون تارة بموسيقى

اجمعت الامم من جميع الطبقات (الموسيقى الشرقي) على حب الالحان حسب عاداتهم واصطلاح بلادهم ولكل أمة ألحان ونغمات يستلذونها ويفرحون بها لا يستلذها غيرهم ولا يفرح بها سواهم الا بتعود سماعها أو بمعرفة مواقع الطرب فى أى لحن كان. ومن الدليل البين على ان لها تأثيراً فى النفوس كون الناس يستعملونها تارة عند الفرح واللذة والاعراس والولائم وأخرى عند الحزن والغم والمصائب والمآتم وطوراً فى بيوت العبادات والاعياد وآونة فى الاسواق والمنازل وفى الاسفار والحضر وعند الراحة والتعب وفى مجالس الملوك ومنازل السوقة ويستعملها الرجال والنساء والصبيان والمشايخ والعلماء والجهلاء والصناع والتجار وجميع طبقات الناس

قال ابن ساعد : ومنفعة الموسيقى بسط الارواح وتعديلها وتقويتها وقبضها أيضاً لانه يحركها اما عن مبدئها فيحدث السرور واللذة ويظهر الكرم والشجاعة ونحوها واما الى مبدئها فيحدث الفكر فى العواقب والاهتمام ونحوها ولذلك يستعمل فى الافراح والحروب وعلاج المرضى تارة ويستعمل فى المآتم وبيوت العبادات أخرى

قال افلاطون : من حزن فليستمع الاصوات الطيبة فان النفس اذا حزنت خمد منها نورها فاذا سمعت ما يطربها اشتعل منها ما خمد . وقال ان هذا العلم لم تضعه الحكماء للتسلية واللهو بل للمنافع الذاتية ولذة الروح الروحانية وبسط النفس وترويق الدم أما من ليس له دراية فى ذلك فيعتقد انه ما وضع الا للهو واللعب والترغيب فى لذة شهوات الدنيا والغرور بامانيها .

قال الغزالى فى الاحياء : لله تعالى سر فى مناسبة النغمات الموزونة للارواح حتى انها لتؤثر فيها تأثيراً عجيباً فمن الاصوات ما يفرح ومنها ما يحزن ومنها ما ينوم ومنها ما يضحك ويطرب ومنها ما يستخرج من الاعضاء حركات على وزنها باليد

أو موسقى على ما تقدم ويعنون علم النغم نفسه وتارة بموسيقار ويعنون الشخص المتصف به وتارة بموسقيري ويعنون الآلة التى يصور بها كالعود ونحوه من سائر الآلات حسبما يظهر من تتبع كلامهم حيث قالوا كل صناعة متعلقة باليد فموضوعها الجسم الطبيعى الا الموسقيري فموضوعها الصوت المشتمل على الالحان المخصوصة ولا يخفى عليك ان تعلق الصناعة باليد انما يجري فى الآلة فقط اه

والرجل والرأس ولا ينبغى أن يظن ان ذلك لفهم معانى الشعر بل هذا جار فى الاوتار حتى قيل من لم يحركه الربيع وأزهاره والعود وأوتاره ، فهو فاسد المزاج ، ليس له علاج . وكيف يكون ذلك لفهم المعنى وتأثيره مشاهد فى الصبى فى مهده فانه يسكته الصوت الطيب عن بكائه ، وتنصرف نفسه عما يبكيه الى الاصغاء اليه . والجمل مع بلادة طبعه يتأثر بالحداء تأثراً يستخف معه الاحمال الثقيلة ويستقصر لقوة نشاطه فى سماعه المسافات الطويلة وينبعث فيه من النشاط ما يسكره ويولهه فترى الجمال اذا طالت عليها البوادى واعتراها الاعياء والكلال تحت المحامل والاحمال اذا سمعت منادى الحداء تمد أعناقها وتصغى الى الحادى ناصبة آذانها وتسرع فى سيرها حتى تنزعزع عليها أحمالها ومحاملها وربما تتلف أنفسها من شدة السير وثقل الحمل وهى لا تشعر به لنشاطها

فقد حكى أبو بكر محمد بن داود الدينورى المعروف بالرقى رضى الله عنه قال كنت بالبادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب فاضافنى رجل منهم وأدخلنى خباءه فرأيت فى الخباء عبداً اسود مقيداً بقيد ورأيت جمالا قد ماتت بين يدي البيت وقد بقى منها جمل وهو ناحل ذابل كأنه ينزع روحه فقال لى الغلام : أنت ضيف ولك حق فتشفع فى الى مولاى فانه مكرم لضيفه فلا يرد شفاعتك فى هذا القدر فعساه يحل القيد عنى . قال : فلما احضروا الطعام امتنعت وقلت : لا آكل ما لم اشفع فى هذا العبد . فقال : ان هذا العبد قد افقرنى وأهلك جميع مالى . فقلت : ماذا فعل ؟ فقال : ان له صوتاً طيباً وانى كنت أعيش من ظهور هذه الجمال فحملها أحمالا ثقالا وكان يحدو بها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام فى ليلة واحدة من طيب نغمته فلما حطت أحمالها ماتت كلها الا هذا الجمل الواحد ولكن أنت ضيفى فلكرامتك قد وهبته لك قال : فاحببت أن أسمع صوته فلما أصبحنا أمره أن يحدو على جمل يستقى الماء من بئر هناك فلما رفع صوته هام ذلك الجمل وقطع حباله ووقعت أنا على وجهى فما أظن انى سمعت قط صوتاً أطيب منه .

قال الغزالى بعد ايراد ما تقدم : فاذاً تأثير السماع فى القلب محسوس ومن لم يحركه السماع فهو ناقص ، مائل عن الاعتدال ، بعيد عن الروحانية ، زائد فى غلظ الطبع وكثافته على الجمال والطيور بل على جميع البهائم فان جميعها تتأثر بالنغمات

الموزونة ، ولذلك كانت الطيور تقف على رأس داود عليه السلام لاستماع صوته، ومهما كان النظر فى السماع باعتبار تأثيره فى القلب لم يجز أن يحكم فيه مطلقاً باباحة ولا تحريم بل يختلف ذلك بالاحوال والاشخاص واختلاف طرق النغمات فحكمه حكم ما فى القلب

قال حجة الاسلام : ان الغناء اجتمعت فيه معان ينبغى أن يبحث عن أفرادها ثم عن مجموعها فان فيه سماع صوت طيب موزون ، مفهوم المعنى ، محرك للقلب، فالوصف الاعم انه صوت طيب ، ثم الطيب ينقسم الى الموزون وغيره ، والموزون ينقسم الى المفهوم ، كالاشعار والى غير المفهوم ، كاصوات الجمادات ، وسائر الحيوانات ، أما سماع الصوت الطيب من حيث انه طيب فلا ينبغى أن يحرم بل هو حلال بالنص والقياس . أما القياس فهو انه يرجع الى تلذذ حاسة السمع بادراك ما هو مخصوص به وللانسان عقل وخمس حواس ولكل حاسة ادراك وفى مدركات تلك الحاسة ما يستلذ فلذة النظر فى المبصرات الجميلة كالخضرة والماء الجارى والوجه الحسن وبالجملة سائر الالوان الجميلة وهي فى مقابلة ما يكره من الالوان الكدرة القبيحة وللشم الروائح الطيبة وهى فى مقابلة الانتان المستكرهة وللذوق الطعوم اللذيذة كالدسومة والحلاوة والحموضة وهى فى مقابلة المرارة المستبشعة والمس لذة اللين والنعومة والملاسة وهى فى مقابلة الخشونة والضراسة وللعقل لذة العلم والمعرفة وهى فى مقابلة الجهل والبلادة فكذلك الاصوات المدركة بالسمع تنقسم الى مستلذة كصوت العنادل والمزامير ومستكرهة كنهيق الحمير وغيرها فما اظهر قياس هذه الحاسة ولذتها على سائر الحواس ولذاتها .

ونقل الغزالى أيضاً عن أبى طالب المكى اباحة السماع عن جماعة فقال : سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير والمغيرة بن شعبة ومعاوية وغيرهم. وقال : قدفعل ذلك كثير من السلف الصالح صحابى وتابعى باحسان وقال لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع في أفضل أيام السنة وهى الايام المعدودات التى أمر الله عباده فيها بذكره كايام التشريق ولم يزل أهل المدينة مواظبين كاهل مكة على السماع الى زماننا هذا فادركنا أبا مروان القاضى وله جوار يسمعن الناس التلحين قد أعدهن للصوفية . قال : وكان لعطاء جاريتان

يلحنان فكان اخوانه يستمعون اليهما قال : وقيل لابي الحسن بن سالم كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد وسري السقطي وذو النون يستمعون فقال : وكيف انكر السماع وقد اجازه وسمعه من هو خير مني فقد كان عبد الله بن جعفر الطيار يسمع وأنا أنكر اللهو واللعب في السماع

هذا ما قاله الغزالي ونقله في السماع وفوائده والمحرم منه في الاسلام ما كان مانعاً عن العمل والعبادة محركا للشهوات البهيمية كما ان آلات الطرب يكون حكمها حكم السماع والتلحين وفي هذه المسألة مرادات واختلافات بين العلماء في القديم والحديث ولكن العقلاء منهم اختاروا التوسط والتوسط محمود في كل حال فانهم لم يقبلوا أن يخرجوا بالناس عن الطبع والطبيعة لانهم اذا منعوا ما هو ضروري من ضرورات الحياة لا يعود الناس يبالون ويسيرون بلا وازع وعلى كل فان الاعتدال هو غاية الغايات حتى في العبادة

نحن في عصر أصبح فيه الغناء من الفنون ذات القواعد والروابط والاصول ولذلك ترى المنشدين والمغنين والموسيقيين يختارون من الالحان ما يناسب الظرف الذي هم فيه وتراعى به حالة المستمعين وقد ادعى بعضهم أن من النغمات مايطيب في يوم ولا يطيب في آخر وبعض الالحان قد يكون لها من التأثير ما لا يكون لغيرها ولاشك ان للحالة النفسية التي يكون عليها المغني والمغنى له دخلا كبيراً في الطرب فقد وقع لنا أن طربنا مرات بشباب الراعي في الجبال أكثر من سماع الناي والقيثارة وأن راقنا الغناء الطبيعي أكثر من المصنع الموقع على الالحان وكثيراً ما يسمع المرء أمهر الموسيقاريين المنشدين فلا يرتاح كما يرتاح لسماع بدوي في البادية يحدو ويتغنى كأن النفس لا تميل الا الى الطبيعي من الاشياء الخالي من الطلاء الصنعي .

قال أبو المنذر هشام بن الكلبي : الغناء على ثلاثة أوجه النصب والسناد والهزج فاما النصب فغناء الركبان والقينات وأما السناد فالثقيل الترجيع الكثير النغمات وأما الهزج فالخفيف كله وهو الذي يثير القلوب ويهيج الحليم وانما كان أصل الغناء ومعدنه في أمهات القرى من بلاد العرب ظاهراً فاشياً وهي المدينة والطائف وخيبر ووادي القرى ودومة الجندل واليمامة وهذه القرى مجامع

أسواق العرب وكانت العرب تسمي القينة الكرنية والعود الكران والمزهر أيضاً هو العود وهو البربط وكان أول من غنى فى الاسلام الغناء الرقيق طويس وهو علم ابن سريج والدلال ونؤمة الضحى . وقالوا غناء كل مغن مخلوق من قلب رجل واحد وغناء ابن سريج مخلوق من قلوب الناس جميعاً وكانوا يقولون الغناء على ثلاثة أضرب فضرب منه مطرب محرك ويستخف وضرب ثان له شجى ورقة وضرب ثالث حكمة واتقان صنعة

الغناء مؤثر فى البهائم فكيف لايؤثر فى الانسان ، هو يؤثر فى الطيور والهوام، ولطالما شوهد العصفور والشحرور يرفرفان أمام مغن مطرب وآلة موسيقية شجية ، وقد أخذهما الطرب فاقتربا يستمعان للاغانى ورنات المثالث والمثانى كما يقترب الطروب من الاناسي ، وشوهد أن الافاعى خرجت من أوكارها تستمع لنغمة شاد أوضربة موسيقار ، بل شوهد ان من الغناء ماتهتز له جوانب القصور وترتج رفوفها وحيطانها ولعل ماقيل من ان صوت فلان يطرب الجماد له من الواقع أو الواقائع ما يؤيده

الالحان تصفى الارواح ، وتبعث النشاط فى النفوس ، فبها قد يجسر الجبان في ساحة الوغى ، ويكرم الشحيح ، ويرق الكثيف ، ويلين القاسى ، ويقوى الضعيف ، ويعدل الظالم ، ويعطف اللئيم . وخير الاغانى والاناشيد ماكانت ملحنة بالحان تناسبها معربة الالفاظ جيدة المعانى وماقيل من انه ليس على المطرب أن يعرب ليس صحيحاً من أكثر وجوهه فان لجودة اللفظ والمعنى تأثيراً لاينكره الا مريض الذوق بعيد عن مناحى الآداب سقيم الفهم .

كان الناس فى القديم لايعرفون غير العود [1] والقانون والمزامير والشبابات والصلاصل والطارات والتغيير والكوبة من آلات الطرب واليوم أتى الافرنج بالارغن والبيانو وغيرهما من أدوات الطرب ولكن جل الاعتماد على البيانو لايكاد يخلو منه بيت ذى نعمة فى الغرب يضرب به أولاده وزوجه وضيوفه ويوقعون

(١) فى الاغانى ان ابن سريج وهو أحد المغنين الاربعة المشاهير والثلاثة هم ابن محرز والغريض ومعبد هو أول من ضرب بالعود على الغناء العربى بمكة وكان عوده على صنعة عيدان الفرس رآه مع العجم الذين قدم بهم ابن الزبير لبناء الكعبة فاعجب أهل مكة غناؤهم فقال ابن سريج انا اضرب به على غنائى فضرب به فكان أحذق الناس

عليه أنواع الاغانى والاناشيد وتعلمه فيما نحسب أسهل من تعلم العود المألوف فى هذا الشرق الاقرب . والتغيير هو الغناء بالطقطقة بالقضيب وانما سمى تغييراً لان محدثيه يسمون المغيرة. والكوبة طبل طويل ضيق الوسط ذو رأسين وهو المعروف بالدربكة فى بلاد الشام .

قال يزيد بن عبد الملك يوماً وذكر عنده البربط ليت شعرى ماهو فقال له عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أنا اخبرك ما هو هو محدودب الظهر أرسح البطن له أربعة أوتار اذا حركت لم يسمعها أحد الا حرك أعطافه وهز رأسه

وقد ورد فى الكتاب والسنة وسيرة أعاظم سلف الامة اشارة الى الغناء والى تجوزهم فى سماعه وهم ولاشك أحسن قدوة فى هذا الباب . قال القرطبى ومن الاستدلال بالكتاب من ذلك أى على الغناء قوله تعالى « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله » قال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة هو الغناء وقوله تعالى « واستفزز من استطعت منهم بصوتك » قال مجاهد انه الغناء والمزامير « وأنتم سامدون » قال ابن عباس : هو الغناء . ومن السنة ما خرجه الترمذى ان النبى صلى الله عليه وسلم رجع من بعض مغازيه فجاءته جارية سوداء فقالت : يا رسولَ الله انى كنت نذرت ان ردك الله سالماً أن أضرب بين يديك بالدف وأتغنى فقال لها : أن كنت نذرت فاضربى فدخل أبو بكر وهى تضرب ثم دخل علىّ وهى تضرب ثم دخل عمر فألقت الدف تحتها فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ان الشيطان ليخاف منك ياعمر . وفى حديث عائشة أن امرأة زفت الى رجل من الانصار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعائشة أما كان معهم لهو فان الانصار يعجبهم اللهو . واللهو هو الغناء .

وحكى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم من سفر فصعد النساء على السطوح يضربن بالدفوف ويقلن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا مادعا لله داع

روى ابن عبد ربه فى العقد الفريد قال بعض أهل التفسير فى قول الله

« يزيد فى الخلق ما يشاء » هو الصوت الحسن . وقال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى موسى الاشعرى لما أعجبه صوته : لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود

كان أبو يوسف القاضى ربما حضر مجلس الرشيد وفيه الغناء فيجعل مكان السرور به بكاء كأنه يتذكر به نعيم الآخرة . وقال أحمد بن أبى دؤاد ان كنت لأسمع الغناء من مخارق عند المعتضم فيقع على البكاء حتى ان البهائم لتحن الى الصوت الحسن وتعرف فضله .

وكان صاحب الفلاحات يقول بان النحل أطرب الحيوان كله الى الغناء وأن أفراخها تستنزل بمثل الزجل والصوت الحسن . قال فى العقد وأردف النبى صلى الله عليه وسلم الشريد فاستنشده من شعر أمية فأنشده مائة قافية وهو يقول : هيه استحساناً لها فلما أعياهم القدح فى الشعر والقول فيه قالوا الشعر حسن ولا نرى أن يؤخذ بلحن حسن وأجازوا ذلك فى القرآن وفى الاذان فان كانت الالحان مكروهة فالقرآن والاذان أحق بالتنزيه عنها وان كانت غير مكروهة فالشعر أحوج اليها لاقامة الوزن واخراجه عن حد الخبر وما الفرق بين أن ينشد الرجل « أتعرف رسماً كأطراد المذنب » مرسلا أو ليرفع بها صوته مرتجلا وانما جعلت العرب الشعر موزوناً لمد الصوت فيه والدندنة ولولا ذلك لكان الشعر المنظوم كالخبر المنثور

واحتجوا فى اباحة الغناء واستحسانه بقول النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة أهديتم الفتاة الى بعلها قالت نعم قال فبعثتم معها من يغنى قالت : لا قال : أو ما علمت أن الانصار قوم يعجبهم الغزل ألا بعثتم معها من يقول :

أتيناكم أتيناكم ... فحيونا نحييكم

ولولا الحبة السمرا ... ء لم نحلل بواديكم

واحتجوا بحديث عبد الله بن أويس ابن عم مالك وكان من أفضل رجال الزهرى قال مر النبى صلى الله عليه وسلم بجارية بظل قارع وهى تغنى :

هل على ويحكم ... ان لهوت من حرج

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لا حرج ان شاء الله

حدث عباس بن المفضل قاضى المدينة قال حدثنى الزبير بن بكار قاضى مكة عن

مصعب بن عبد الله قال : دخل الشعبي على بشر بن مروان وهو والى العراق لاخيه عبد الملك بن مروان وعنده جارية فى حجرها عود فلما دخل الشعبي أمرها فوضعت العود فقال له الشعبي : لا ينبغي للامير أن يستحى من عبده قال : صدقتم ثم قال للجارية هات ماعندك فاخذت العود وغنت :

ومما شجاني انها يوم ودعت تولت وماء العين فى الجفن حائر
فلما أعادت من بعيد بنظرة الى التفاتاً أسلمته المحاجر

فقال الشعبي : الصغير اكيسهما يريد الزير ثم قال . ياهذه أرخى من بمك وشدى من زيرك فقال له بشر : وما علمك قال : أظن العمل فيهما قال : صدقت ومن لم ينفعه ظنه لم ينفعه يقينه .

أرق معاوية ذات ليلة فقال لخادمه خديج : اذهب فانظر من عند عبد الله (بن جعفر وكان ضيفه أنزله فى دار عياله بالشام) وأخبره بخروجى اليه فذهب فاخبره فاقام كل من كان عنده ثم جاء معاوية فلم ير فى المجلس غير عبد الله فقال مجلس من هذا قال مجلس فلان قال معاوية : مره يرجع الى مجلسه ثم قال مجلس من هذا قال : مجلس فلان قال مره يرجع الى مجلسه. حتى لم يبق الا مجلس رجل فقال مجلس من هذا قال مجلس رجل يداوى الآذان يا أمير المؤمنين قال له معاوية فان أذنى عليلة فمره فليرجع الى موضعه وكان موضع بديح المغنى فامره ابن جعفر فرجع الى موضعه فقال له معاوية داو أذنى من علتها فتناول العود ثم غنى:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتثلم

فحرك عبد الله بن جعفر رأسه فقال معاوية : لم حركت رأسك يا ابن جعفر قال : اريحية أجدها يا أمير المؤمنين لو لاقيت عندها لا بليت ولئن سئلت عندها لأعطيت وكان معاوية قد خضب فقال ابن جعفر لبديح هات غير هذا وكانت عند معاوية جارية أعز جواريه عنده كانت متولية خضابه فغناه بديح:

وليس عندك شكر للتى جعلت ما ابيض من قادمات الشعر كالحمم
وجددت منك ما قد كان أخلقه صرف الزمان وطول الدهر والقدم

فطرب معاوية طرباً شديداً وجعل يحرك رجله فقال ابن جعفر ياأمير المؤمنين سألتنى عن تحريك رأسى فأخبرتك وأنا أسألك عن تحريك رجلك فقال معاوية

كل كريم طروب ثم قام وقال : لا يبرح أحد منكم حتى يأتيه اذنى فبعث الى ابن جعفر بعشرة آلاف دينار ومائة ثوب من خاص ثيابه والى كل رجل منهم بالف دينار وعشرة أثواب

روى المبرد فى الكامل قال حدثت ان معاوية استمع على يزيد ذات ليلة فسمع من عنده غناء أعجبه فلما أصبح قال ليزيد : من كان ملهيك البارحة فقال له يزيد : ذاك سائب خاثر قال : اذاً فاخثر له من العطاء . وحدثت ان معاوية قال لعمرو : امض بنا الى هذا الذى قد تشاغل باللهو وسعى فى هدم مروءته حتى ننعى عليه أى نعيب عليه فعله يريد عبد الله بن جعفر بن أبى طالب فدخلا اليه وعنده سائب خاثر وهو يلقى على جوار لعبدالله فأمر عبد الله بتنحية الجوارى لدخول معاوية وثبت سائب مكانه وتنحى عبد الله عن سريره لمعاوية فرفع معاوية عمراً فاجلسه الى جانبه ثم قال لعبد الله . أعد ما كنت فيه فأمر بالكراسى فألقيت وأخرج الجوارى فتغنى سائب بقول قيس بن الخطيم :

ديار التى كادت ونحن على منى تحل بنا لولا نجاء الركائب

ومثلك قد أصبيت ليست بكنة ولا جارة ولا حليلة صاحب

ورده الجوارى عليه فحرك معاوية يديه وتحرك فى مجلسه ثم مد رجليه فجعل يضرب بهما وجه السرير فقال له عمرو : اتئد يا أمير المؤمنين فان الذى جئت لتلحاه أحسن منك حالا وأقل حركة فقال معاوية : اسكت لا أبالك فان كل كريم طروب .

وذكر ابن عميرة الضبى[1] فى ترجمة محمد بن اسحاق بن السليم قاضى الجماعة بقرطبة انه كان من العدول المرضيين والفقهاء المشهورين وله عند أهل بلاده حالة مذكورة ومنزلة فى العلم والفضل معروفة وكان مع هيبته ورياسته حسن العشرة والانس كريم النفس مات سنة ٣٦٧ حدث القاضى أبو الوليد يونس بن عبد الله بن مغيث عرف بابن الصفار ان رجلا من أهل المشرق يعرف بالشيبانى دخل الأندلس فسكن بقرطبة على شاطىء الوادى بالعيون فخرج قاضى الجماعة

(١) بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الاندلس لاحمد بن يحيى بن عميرة الضبى طبع فى مدينة مجريط سنة ١٨٨٤ م

ابن السليم يوما لحاجة فأصابه مطر اضطره الى ان دخل بدابته فى دهليز الشيبانى فوافقه فيه فرحب بالقاضى وسأله النزول فنزل وأدخله الى منزله وتفاوضا فى الحديث فقال له : اصلح الله القاضى عندى جارية مدنية لم يسمع بأطيب من صوتها فان أذنت أسمعتك عشراً من كتاب الله عز وجل وأبياتاً فقال له : افعل فأمر الجارية فقرأت ثم أنشدت فاستحسن ذلك القاضى وعجب منه وكان على كمه دنانير فأخرجها وجعلها تحت الفرش/الذى جلس عليه ولم يعلم بذلك صاحب المنزل فلما ارتفع المطر ركب القاضى وودعه الشيبانى فدعا القاضى له ولجاريته

ولا بأس هنا ان نختم هذا الفصل بأبيات فى صنعة الغناء نقلها الشريف المرتضى فى أماليه قال : أخبرنا المرزبانى قال : حدثنا على بن هارون قال : حدثنى أبى قال : من بارع شعر بشار قوله يصف جارية مغنية قال على : وما فى الدنيا شىء لقديم ولا محدث من منثور ولا منظوم فى صفة الغناء واستحسانه مثل هذه الأبيات :

ورائحة للعين فيها مخيلة ... اذا أبرقت لم تسق بطن صعيد
من المستهلات الهموم على الفتى ... خفا برقها فى عصفر وعقود
حسدت عليها كل شىء يمسها ... وما كنت لولا حبها بحسود
وأصفر مثل الزعفران شربته ... على صوت صفراء الترائب رود
كأن أميراً جالساً فى ثيابها ... تؤمل رؤياه عيون وفود
من البيض لم تسرح على أهل ثلة ... سواما ولم ترفع حداج قعود
تميت به ألبابنا وقلوبنا ... مراراً وتحييهن بعد همود
اذا نطقت صحنا وصاح لنا الصدى ... صياح جنود وجهت لجنود
ظللنا بذاك الدير يدن اليوم كله ... كأنا من الفردوس تحت خلود
ولا بأس الا أننا عند أهلنا ... شهود وما ألبابنا بشهود

شرف الموسيقى

كل شيء يشرف ويتضع بشرف القائمين به ووضاعتهم ، وكل علم يشرف ويتضع على نسبة اعتبارية من فائدة تتوقع منه ، وغاية تكون وراءه . وصناعة الموسيقى هى من امارات الظرف تعد عند الأمم الحديثة المتحضرة من الفنون الجميلة كما كان يعهدها العرب إبان حضارتهم من الكماليات

قال ابن خلدون : والغناء يحدث فى العمران اذا توفر وتجاوز حد الضرورى الى الحاجى ثم الى الكمالى وتفننوا فتحدث هذه الصناعة لانه لا يستدعيها الا من فرغ من جميع حاجياته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره فلا يطلبها الا الفارغون عن سائر أحوالهم تفنناً فى مذاهب الملذوذات ، وكان فى سلطان العجم قبل الملة منها بحر زاخر فى أمصارهم ومدنهم ، وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به ، حتى لقد كان للملوك الفرس اهتمام بأهل هذه الصناعة ولهم مكان فى دولتهم ، وكانوا يحضرون مشاهدهم ومجامعهم ويفنون فيها

قال : وأما العرب فكان لهم أولا فن الشعر يؤلفون فيه الكلام أجزاء متساوية لم يزل هذا شأنهم فى بداوتهم وجاهليتهم . فلما جاء الاسلام واستولوا على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم وغلبوهم عليه وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال التى عرفت لهم مع غضارة الدين وشدته فى ترك أحوال الفراغ وما ليس بنافع فى دين ولا معاش فهجروا ذلك كثيراً ولم يكن الملذوذ عندهم الا ترجيع القراءة والترنم بالشعر الذى هو ديدنهم ومذهبهم ، فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الامم صاروا الى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا الى الحجاز وصاروا موالى للعرب وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير وسمع العرب تلحينهم للاصوات فلحنوا عليها أشعارهم وظهر بالمدينة نشيط الفارسى وطويس وسائب خاثر مولى عبيد الله بن جعفر فسمعوا شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه وطار لهم ذكر ثم أخذ عنهم معبد وطبقته وابن سريج وأنظاره ومازالت صناعة

الغناء تتدرج الى ان كملت أيام بنى العباس عند ابراهيم بن المهدى وابراهيم وابنه اسحق وابنه حماد .

قال : وكثر ذلك ببغداد وأمصار العراق وانتشر منها الى غيرها وكان للموصليين غلام اسمه زرياب أخذ عنهم الغناء فاجاد فصرفوه الى المغرب غيرة منه فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الاندلس فبالغ فى تكرمته وركب للقائه وأسنى له الجوائز والاقطاعات والجرايات وأحله من دولته وندمائه بمكان فاورث بالاندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه الى أزمان الطوائف . وطما منها باشبيلية بحر زاخر وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها الى بلاد العدوة بافريقية والمغرب. وانقسم على أمصارها وبها الآن منها صبابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها

وهذه الصناعة آخر ما يحصل فى العمران من الصنائع لانها كمالية فى غير وظيفة من الوظائف الا وظيفة الفراغ والفرح وهو أيضاً أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه .

قال ابن خلدون أيضاً : ولقد عذلت يوماً بعض الامراء من أبناء الملوك فى كلفه بتعلم الغناء وولوعه بالاوتار وقلت له ليس هذا من شأنك ولا يليق بمنصبك فقال لى : أفلا ترى الى ابراهيم بن المهدى كيف كان امام هذه الصناعة ورئيس المغنين فى زمانه فقلت له : يا سبحان الله وهلا تأسيت بابيه وأخيه وما رأيت كيف قعد ذلك بابراهيم عن مناصبهم ؟ فصم عن عذلى وأعرض

هذه زبدة تاريخ الغناء أو الموسيقى فى العرب وطرف مما كان من عناية ملوك الاسلام بها أيام الحضارة . ولقد انتشرت بعد حتى صار يتعلمها بعض أهل العلم من غير نكير وشرفت باقبال الكبراء عليها بحيث لم تكن فى شرفها دون غيرها من العلوم فقد ذكر ابن أبى أصيبعة ان الفارابى المعلم الثانى وصل فى علم صناعة الموسيقى وعملها الى غاياتها وأتقنها اتقاناً لا مزيد عليه ويذكر انه صنع آلة غريبة يسمع عنها ألحاناً بديعة يحرك بها الانفعالات وله كتاب الموسيقى الكبير الفه للوزير أبى جعفر محمد بن القاسم الكرخى وكتاب فى احصاء الايقاع وكلام له فى النقلة مضافا الى الايقاع كلام فى الموسيقى . ويحكى ان القانون الذى يضرب

عليه للطرب هو من وضعه وانه كان أول من ركب هذه الآلة تركيبها المعهود اليوم .

وألف يعقوب بن اسحق الكندى فيلسوف العرب فى الموسيقى فكتب رسالة فى ترتيب النغم الدالة على طبائع الاشخاص العالية وتشابه التأليف ورسالة فى المدخل الى صناعة الموسيقى ورسالة فى الايقاع ورسالة فى الاخبار عن صناعة الموسيقى ومختصر الموسيقى فى تأليف النغم وصنعة العود ألفه لاحمد بن المعتصم ورسالة فى أجزاء جبرية الموسيقى .

وألف احمد بن الطيب السرخسى العالم الحكيم كتاب الموسيقى الكبير ولم يعمل مثله كما ألف كتاب نزهة النفوس ولم يخرج باسمه وكتاب اللؤلؤ والملاهى ونزهة المفكر الساهى فى الغناء والمغنين والمنادمة والمجالسة وأنواع الاخبار والملح صنفه للخليفة

وألف ثابت بن قرة كتاباً فى الموسيقى ورسالة الى على بن يحيى المنجم فيما أمر باثباته من أبواب علم الموسيقى ورسالة الى بعض اخوانه فى جواب ما سأله عنه من أمور الموسيقى . وكان أبو بكر محمد بن طفيل من فلاسفة المسلمين فى الاندلس يأخذ رواتب كثيرة مع الاطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والاجناد وغيرهم ويقول لو نفق عليهم علم الموسيقى لانفقته عندهم .

وكان ابن باجة الفيلسوف الاندلسى على جلالة قدره متقناً لصناعة الموسيقى جيد اللعب بالعود قال ابن سعيد : ان ابن باجة فى الموسيقى بالمغرب بمنزلة أبي نصر الفارابى بالمشرق واليه تنسب الالحان المطربة بالاندلس التى عليها الاعتماد .

وكان ابن يونس المنجم المشهور يضرب بالعود على جهة التأدب . وكان أبو المجد بن أبى الحكم من الحكماء المشهورين يعرف الموسيقى ويلعب بالعود ويجيد الغناء والايقاع والزمر وسائر الآلات وعمل ارغناً وبالغ فى اتقانه . وكان أبو زكريا يحيى البياسى من أفاضل العلماء جيد اللعب بالعود وعمل الارغن أيضاً وحاول اللعب به وكان يقرأ عليه علم الموسيقى . وكان أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الاندلسى العالم الرياضى الطبيب متقناً لعلم الموسيقى وعمله جيد اللعب بالعود . وكان الحرث بن كلدة الثقفى أحد أطباء العرب يضرب بالعود تعلم ذلك

بفارس واليمن . وكان قسطا بن لوقا البعلبكى العالم الفيلسوف بارعاً فى علم الموسيقى وكان أمين الدولة بن التلميذ يحب صناعة الموسيقى وله ميل الى أهلها . وكان صفى الدين عبد المؤمن بن فاخر العالم المفنن عالماً بالموسيقى . وكان نجم الدين بن المنفاخ المعروف بابن العالمة لان أمه كانت عالمة بدمشق وتعرف ببنت دهين اللوز فاضلا فى الادب والطب وله معرفة بالضرب بالعود استوزره الملك مسعود صاحب آمد وحظى عنده . وكان فخر الدين بن الساعاتى الفلكي الفيلسوف الطبيب خدم بنى أيوب وتوزر للملك العادل والملك المعظم وكان ينادم هذا ويلعب بالعود . وكان رشيد الدين بن خليفة الطبيب العالم أعرف أهل زمانه بالموسيقى واللعب بالعود وأطيبهم صوتاً ونغمة حتى انه شوهد من تأثير الانفس عند سماعه مثل ما يحكى عن أبى نصر الفارابى فكثر اعجاب الملك المعظم به جداً وبعد ذلك أخذه اليه واستمر فى خدمته . وذكر ابن خلكان ان أبا بكر محمد بن زكريا الرازى الطبيب المشهور كان فى شبيبته يضرب بالعود ويغنى فلما التحى وجهه قال: كل غناء يخرج من بين شارب ولحية لا يستطرف فنزع عن ذلك واقبل على دراسة كتب الطب والفلسفة .

وكان أبو الحسين على بن الحمارة آخر فلاسفة الاندلس آخر من برع فى الالحان وعلمها وهو من أهل غرناطة قال فى نفح الطيب واشتهر عنه انه كان يعمد الى الشعراء فيقطع العود بيده ثم يصنع منه عوداً للغناء وينظم الشعر ويلحنه ويغنى به فيطرب سامعيه . وكان الفاضل أبو الحسين بن الوزير أبى جعفر الوقشى آية فى الظرف والموسيقى والتهذيب وشيخه فى هذا الفن أبو الحسين بن الحسن بن الحاسب كان ذا ذوق فيها مع صوت بديع أشهى من الكاس للخليع قال أبو عمران بن سعيد ما سمعته الا تذكرت قول الرصافى :

ومطارح مما تجس بنائه * لحناً أفاض عليه ماء وقاره
يثنى الحمام فلا يروح لوكره * طرباً ورزق بنيه فى منقاره

وكان محمد بن احمد بن أبى بكر القرموطى المرسى من أعرف أهل الاندلس بالعلوم القديمة المنطق والهندسة والعود والموسيقى والطب فيلسوفاً طبيباً ماهراً يقرىء الامم بألسنتهم فنونهم التى يرغبون فيها وفى تعلمها ولما تغلب الافرنج على

مرسية عرف له حقه فبنى مدرسة يقرىء فيها المسلمين والنصارى واليهود قاله فى النفح .

وعلى الجملة لم تكن صناعة الموسيقى بالمنزلة التى يصورها أهل جيلنا من الغضاضة والضعة بل عرف بها أناس من أهل الصيانه والعلم وما كان كل من تعاطى صناعة الغناء عارياً من سائر العلوم فقد كان اسحق بن ابراهيم الموصلى نديم الخلفاء وشيخ الغناء ومع هذا كان من العلماء باللغة والشعر وأخبار الناس وله يد طولى فى الحديث والفقه والكلام وكان المأمون يقول لولا ماسبق لاسحق على ألسنة الناس واشتهر بالغناء لوليته القضاء فانه أولى وأعف وأصدق وأكثر ديناً وأمانة من هؤلاء القضاة ولكنه اشتهر بالغناء وغلب على جميع علومه مع انه أصغرها عنده .

ومثل هذا ما وقع لقاضى اشبيلية أبي بكر بن القاضى أبى الحسن الزهرى فانه كان كثير اللعب بالشطرنج لم يكن من يلعب به مثله فى بلده قال : فكانوا يقولون أبو بكر الزهري الشطرنجى فكان اذا بلغنى ذلك أغتاظ ويصعب على فقلت فى نفسى لابد أن اشتغل عن هذا بشىء غيره من العلم لانعت به ويزول عنى وصف الشطرنج وعلمت ان الفقه وسائر الادب ولو اشتغلت به عمرى كله لم يخصنى منه وصف أنعت به فعدلت الى أبى مروان عبد الملك بن زهر واشتغلت عليه بصناعة الطب وكنت اجلس عنده وأكتب لمن جاء مستوصفاً من المرضى الرقاع واشتهرت بعد ذلك بالطب وزال عنى ما كنت أكره الوصف به . وهذا هو السبب والله اعلم فى اخفاء كثير من أهل الوقار والعلم انهم على جانب من علم الموسيقى والضرب على العود وغيره من أنواع المذوذ ولولا التقية لانتهى الينا أسماء كثير ممن لم تبلغنا عنهم سوى أخبار العلوم المتعارفة على ان الشرف كله اعتبارى ولا مانع من الغناء والتلحين اذا لم يتبعه التلطخ بجمأة السفاهة والرذيلة .

أما الملوك والامراء الذين عنوا بالموسيقى قديماً فاكثر من أن يحصوا منهم يزيد بن عبد الملك ومسلمة بن عبد الملك وأبو عيسى بن الرشيد وعبد الله بن موسى الهادى وابراهيم بن عيسى بن جعفر المنصور ومحمد بن جعفر المقتدر

والمتوكل والمهدى والمؤيد وطلحة الموفق والطائع والمقتدر وابن المعتز وغيرهم من الملوك المتأخرين والله أعلم .

الاستشفاء بالموسيقى (١)

قال افلاطون : لم يبعث الأرباب فن الموسيقى لادخال السرور على البشر واللذة على حواسهم بل لتسكين اضطرابات نفوسهم وتهدئة تلك الحركات المشوشة التى لا مندوحة لجسد ملئ بالنقص عن الشعور بها . وقد جعل الاطباء قديماً وحديثاً هذه الكلمات نصب أعينهم . عرف ذلك من ثباتهم على المحاولة فى شفاء مرضاهم بالانغام فاستعملوا الموسيقى لشفاء أو تخفيف الصرع والسويداء والاب (النزاع الى الوطن) والخبل وضيق الصدر والهوس والجنون والبلادة والسير والتكلم فى حال النوم والخدر والنقطة والهستريا والسكتة والفالج والسرسام وداء الاعصاب والحميات والنقرس وعرق النسا والرئية والطاعون والحميراء والكلب وغيرها كما استعملوها لشفاء الجروح والقرصات السامة ولتقوية الهضم والتنفس وترشيح الاخلاط فللموسيقى شأن فى الطب وتستخدم للتمريض وكانت تتم فى القديم معرفة فنون الشعر والموسيقى والطب لشخص واحد .

يقول الين (الكاتب اليونانى من أهل القرن الثالث) ان تربياندر وتاليت وترتى كانوا أطباء موسيقيين وأوصى كسينوكرات وابقراط واسكلبيادس وكاليين وارتى وسليوس اورليانوس وتيوفراست باستخدام الموسيقى فى عدة أمراض عند ما تنقطع الحيلة من العلاج فى بعض الادواء ، وكان الاحياء والاموات يسمعون أدوات الطرب ، قال مونارك ان القدماء كانوا يسمعون المحتضرين بعض الالحان وربما أسمعوها من قضوا نحبهم لعلهم تعود الحياة اليهم . وقال سليوس اورليانوس ان فيثاغورس كان أول من استعمل الموسيقى فى شفاء الامراض وانه جرب ذلك فى بلاد اليونان وقال بورهان (١٦٦٨ — ١٧٣٨) لا بأس

(١) لخصناها عن المجلة الباريزية الافرنسية ونشرت فى السنة الاولى من مجلة المقتبس

بنسبة جميع الخوارق التى رويت عن الرقيات والاشعار فى شفاء الامراض الى الموسيقى التى كان قدماء الاطباء يجيدونها .

استعملت الموسيقى فى عصرنا لمعالجة عامة الامراض فأصدر بونابرت أمره الى أجواق موسيقى كتائب جيش الشرق أن تصدح كل يوم تحت نوافذ المستشفيات ولا تزال أجواق الموسيقى العسكرية الى اليوم فى كثير من الحاميات فى الولايات تذهب مرة أو مرتين فى الاسبوع لتنغم بأبواقها أمام مرضى الجند

ولقد عزمت احدى جمعيات الاحسان فى انكلترا على تحقيق تأثير الموسيقى فى تسكين الآلام الطبيعية والادبية فى كثير من الاسقام فألفت من مرضى الموسيقيين عصابة تقوم فى مكان خاص بها تتناوب العمل فيه ليل نهار لنقل الانغام الموسيقية بواسطة أسلاك الهاتف (التلفون) الى قاعات مخصوصة من كل مستشفى كبير فى لندرا . فاسفر ما جرى من التجارب فى هذا الشأن حتى الآن عن نتائج مهمة . داخل ما نجم من الفوائد ان أخذ المضطربون من المرضى ينامون ملء جفونهم واستراحوا من التشويش والتبليل وتألفت فى سها لنبورغ جمعية من النساء المريضات لتصدح كل يوم بالقرب ممن أجريت لهم العمليات بالانغام الموسيقية صوتية كانت أو آلية فثبت ان درجة حرارتهم كانت تنزل وان آلامهم تخف . ومثل ذلك جرب فى مستشفى بلتون بانكلترا .

والكنجة هى الآلة المستعملة فى الاكثر وأحسن الآلات استعمالا فى حال الأرق علبة موسيقية بسيطة تدور بحركة ساعة دقاقة أو بمحرك كهربائى . بيد أن تأثير الموسيقى فى المرضى يحتاج الى درس طويل اذا أخذ بمجموعه لا على التعيين .

نشر أحد أطباء الالمان كراسة فى فعل الموسيقى فى النفوس فقال : انها اذا أضعفت الاصحاء فهى تسكن حواس المرضى وانها لتنفع فى أوجاع الرأس والدوار والاغماء واستشهد على ذلك بامرأة كان صوت الارغن يضيع رشدها فيعروها جذب وكانت تلك الآلة بعينها تحدث نفس التأثير فى فنى طليانى كان مصاباً بالدودة الوحيدة وذكر روسو الفيلسوف أن كاهناً كان اذا سمع صوت الارغن يتأثر حتى ليضطر

الى مغادرة الهيكل وعلى العكس فى رجل من قومه كان يستولى عليه وهو فى حالة السماع ضحك عصبى يستلزم اخراجه من الكنيسة ولاحظ الطبيب المشار اليه أن الموسيقي تعدل سير الدم وتحسن حالة النفس فاذا كانت الانغام الموسيقية حادة بهجة تبرق العين وتزيد حمرة الوجه ويسرع ضرب النبض وتعو حرارة الجسد ويضرب القلب ويسهل الهضم واذا كانت الانغام الموسيقية كئيبة وبطيئة تحدث للعين غشاوة ويصفر الوجه وتقل رطوبة الجلد ويزداد تواتر الدم الى القلب ويضعف ضرب النبض ويقل التنفس ويطول

قال وتفعل الموسيقى فى المجموع العضلى فبها يتحمل الجنود الشدائد والمتاعب فتتضاعف قوتهم عند ما يباشرون القتال وتؤثر أيضاً فى التهييج العضلى فانك ترى أناساً يرقصون من الليل ويطيلون الرقص وما كانوا ليقوموا بهذه الرياضة لولا سماع الانغام . فالمرأة مهما بلغ من لطف مزاجها وتأثرها من أقل تعب ينالها يهون عليها الرقص ساعات على صوت آلات الطرب . ثم ان الملاح والمعدن والبحرى يتغنون عند ما يقومون بأعمالهم الصعبة

يحب صاحب المزاج الدموى من الموسيقى ما أفرح وجاز على السمع وكان طبيعياً فى الوضع . ويفضل السوداوى من الموسيقى الشديد القاسى العالى . ولا يحب البلغمى شيئاً من أنواع الموسيقى . أما أهل الدعة والسكون والعلماء فلا يجيدون الشعر ولا يحسنون صنعة الغناء . على ان فى هذا القول نظراً لان القول بأن المزاج الفلانى لا يقبل النغم الفلانى هو ناشىء لا من المزاج فقط بل من الوراثة والمحيط والتربية .

قال الذى أخذناه عنه هذه الافكار ونقلناها الى لغتنا :

ولقد عرفت علماء لا يرتاحون للموسيقى ورأيت من لا يفضلون شيئاً عليها وشهدت من يتوفرون عليها ويعتدلون فى سماعها

وضع الطبيب المنوه به ست قواعد لاستعمال الموسيقى فى شفاء الامراض: أولها انه كلما كانت الموسيقى طبيعية وأعربت عن اللغة الطبيعية فى الفكر تؤثر فى النفوس كثيراً ولا سيما فى نفوس من لم يتعلموا التعليم الكافى . ثانيها لما كان لكل بلاد أنغامها الخاصة بها فان الموسيقى تؤثر فى الروح كلما قربت من هذه

الانغام . ثالثها ينبغى أن تكون الموسيقى متناسبة مع درجة تأثير الموضوع . رابعها ينبغى أن يحدث تأثير الموسيقى ببطء فيبدأ مع السوداويين باستعمال ألحان يتدرج فيها من الخفيف الى القوى ويستعمل من الالحان الشديد أمام أصحاب النفوس الغضبية . خامسها اختيار الآلات المستعملة للغاية التى تطلب . فصاحب المزاج السوداوى يرتاح لسماع الطبل والبوق ذى الانبوبتين Trombon وكذلك المزمار والعود يناسبان مزاجه . سادسها تطرب الموسيقى الطبقات العالية أكثر مما تؤثر فى الطبقات النازلة

ومن رأى هذا الطبيب ان الموسيقى تشفى صاحب السويداء كما تزول بها الكآبة والحزن وتبعد الخوف . ولقد أجمع الفلاسفة على ان شيئين اذا عادلا ثالثاً يكونان متعادلين فاذا كانت الموسيقى نافعة في ازالة الكدر والسويداء فالكدر والسويداء هما فى الحقيقة شىء واحد . فان ابقراط حدد السويداء بأنها الكدر والحزن . وهنا أورد صاحب المقالة حوادث من التاريخ فى أوربا ولا سيما فى فرنسا تدل على ما نفع من الانغام فى مداواة بعض الاسقام ولا سيما الجنون والاختلال وداء النقطة

ثم قال ان الاسلام انتفع من تأثير الموسيقى لتحريض أشياع الحسين الشهيد على الجذب والتهيج وذلك بقرع الطبول المتواتر على إيقاع متساوق سريع فيردد الشيعة على نغم الطنبور الحاناً مقفاة حتى ينتهى الحضور بان لا يعودوا يتأثرون للضرب ولا للجرح . وكذلك الحال فى دراويش الهند فانهم يستعملون كلمة واحدة ويكثرون من ترديدها فتؤدى بهم الى الجذب مصحوباً بقلة التأثر .

وبعد أن أفاض فى إيراد حوادث القدماء وأخبار عنايتهم بالموسيقى فى شفاء بعض الامراض قال ان مراد الرابع (١٦٢٣) أثرت فيه الموسيقي فعقد النية على أن يبقى على اخوته الذين كان ينوى إهراق دمهم وأن فرنسيس الاول بعث الى سليمان الثانى بجوق من الموسيقى فلاحظ هذا أن شراسة خلقه لطفت بسماع ألحانهم فأسف من جراء ذلك كثيراً ولم يلبث أن طرد للحال جميع الموسيقيين من حضرته . وجملة القول أن الموسيقى تؤثر فى الدورة الدموية فى الانسان والحيوان ويزيد بها حفظ الدم وينقص وتتبع هذه التقلبات تأثير تهييج الاعصاب السمعية

وان آلات الطرب والصفير ليظهر فعلها بتحسن فى تشنج القلب خاصة . وتغيير الدم الناتج من تأثير الموسيقى يناسب تحول التنفس وان كان يتجلى ذلك مستقلا عن تحول التنفس . يزيد الستركنين فى تأثير التهييج السمعى فى الدورة الدموية والكلورال على العكس يضعفه والالكحول والافيون يضعفان أيضاً تأثير التهييج السمعى في الدورة الدموية وتغيير الدورة الدموية تابع لارتفاع الصوت وشدته بل لارتفاع الجرس ونزوله. ولتغيير الدورة الدموية دخل كبير فى ذاتية الحيوان والانسان ولاسيما فى جنسية الانسان وتابعيته

وعلى من أراد الوقوف على تأثير الموسيقى فى أحد أعضاء الجسم سليما كان أو سقيما أن يفرق بين العناصر التى ينبعث منها ذاك التأثير . فالهزج واللحن والايقاع تؤثر تأثيرات مختلفة بحسب تركيبها وتلحينها

وفى الختام نقول ان الاستشفاء بالموسيقى قديم العهد وقد ظل محتفظاً بمكانته العلمية والعملية على حالة واحدة رغم اختلاف العصور .

الموسيقى الغربية

مدعاة السرور ، مجلبة النشأة ، مسلاة الحزين ، مفرجة الكروب مهونة الخطوب ، عنوان الحياة الداخلية ، مظهر الاخلاق القومية ، مصورة الفواعل النفسية أصدق عامل على التحمس والتحسس ، أقوى دافع الى النهوض ، معلمة أنفع الدروس الشريفة ، مذكرة بالمطالب العالية مما لا يعلمه الضعف ، دافعة عن مزالق الشباب وطيش الحلوم ، فيها يتجلى العقل البشرى الفعال بأشارات وأى إشارات ، تعمل عملها فى الافئدة والوجدانات

هذه هى الموسيقى وهذا ما يتوخاه الغربيون منها ، ولذلك تجد لها فى كل صقع من أصقاعهم نغمة ورنة ، وفى كل مملكة من ممالكهم وتراً خاصاً ، بل أوتاراً تهز القلوب ، وتعمل عملها فتقوى الضعيف ، وتجبر الكسير ، وتهيب بالمستمع الى ميدان المضاء ، وتمكن فيه أواخى الحزم والعزم ، وتطرد عنه الوساوس

والهواجس . وتجعله فى الذروة تشرف على التصورات البشرية ، فيتدبرها فى سره ، ويهيم ويتعلم ، ويطرب ويسلو .

تدخل الموسيقى عندهم فى معظم مظاهر الحياة الخاصة والعامة ، فلا مجتمع دينياً كان أو مدنياً ، ولاملهى ولامسرح ولا ملعب ولامرقص ، ولامطعم ولا فندق ، الا وللموسيقى فى الغالب دخل كبير فيها يتعلمونها صغاراً ، ويرضعون حبها مع اللبن ، لان الحاجة اليها مغروسة فى الفطرة البشرية ، والدافع اليها الطبع أولا ثم التطبع ، فكيف بهما اذا اجتمعا ، ولذلك يحسنها أو يستحسنها رب الأسرة وصاحبة البيت ، والطفل والابنة ، والفتى والفتاة ، والسيد والمسود ، والموسر والمعسر ، والعامل والماهن ، والغلمانى والكاهن ، والكبير والصغير ، والقائد والجندى ، تساووا فى حبها ، وأجمعت كلمتهم على عموم نفعها ، والاخذ بحظ منها .

قال لى من طاف أميركا الشمالية وتوغل فى ريفها وقراها ان أصغر فلاح فيها يملك آلة البيانو يطرب عليهاهو وأهله وأولاده وأصحابه . وقالت مدام دي ستايل انك لا تجد فى سكان المدن ولا القرى ولا الجنود ولا الحرائين من لا يعرف الموسيقى فى ألمانيا ففي أحقر كوخ تسمع صوت الموسيقى على نحو ماتسمع ذلك فى ايطاليا الا قليلا ، والاولاد والطلبة يطوفون يوم الاحد فى الشوارع يمجدون الله وينشدون الاناشيد الحماسية

آلات الموسيقى متحدة فى الغرب ، ولكن الصور التى تخرجها مختلفة وان أسمعوك فى بلد ما هو من صنع غيرهم ، فتسمع فى كل أمة ألحان رجال الفن فى أمة أخرى وأمم الغرب مهما تباعدت فى المقاصد وتباينت فى المصالح لا تجدها الا متفقة فى تمجيد المغنين من الموسيقيين يضربون أوتارهم من غير نكير ولو بلغ الحقد أو التنافس أو التنابز مداه فى صدورهم ، فليس لهم شيء أجمعوا على تقديسه مثل نغمة تصدر فى يد صناع ، ولحن يلحنه نفس نفيس

الشرقى أمام الموسيقى الغربية كالمقلد بالسمع . أو كمن يسمع بأذن غيره . يطول به العهد حتى يطرب لها طرب أهلها بها ، لان موسيقاه وأغانيه تخالف موسيقاهم وأغانيهم ، ولانه ألف نغمات أخرى . فيه واذلم يفهم اكثر [illegible]

من مصطلح قومه ، مؤتلفة مع مناخه ومحيطه ، ودرجة رقيه وتاريخه . فالعربي يطرب من الموسيقى التركية وبالعكس للمجاورة والالف . والفارسي يحب الموسيقى العربية لتمازج تاريخ أمته بالعرب . وكلما قويت الروابط بين الامم وسهلت الشقة وارتفعت تأثيرات التخوم ، والمبعدات بين القلوب ، زاد طرب الجار من نغمة جاره .

سمعت الموسيقى في أكثر بلاد الغرب في ايطاليا والنمسا والمجر وسويسرا والمانيا وانكلترا وفرنسا وهولندة والبلجيك واسبانيا فكان طربي بالموسيقى الاسبانية اكثر من غيرها لانها تترشح من الانغام العربية لتمازج تاريخ العرب بتاريخ الاسبان ، وكذلك تطرب النفس بالموسيقى التركية ، لانها ترشح من موسيقاته . وقد أتت قرون والعرب والترك متلاحمون في البلاد ، مشتدة روابطهم ، متحدة كلمتهم

ولقد طربت من موسيقى أهل الغرب الأقصى وأهل الجزائر وأهل فارس طربي من الموسيقى الشامية ودون طرب كل عربي بالموسيقى المصرية لانها أرقاها ، وقد بلغت بالنسبة الى سائر البلاد مرتقاها . تأثرت مرة لنغمة فارسي كان ينشدني قصيدة من نظمه في الحرية ، وتأثرت مرة من فتاة صربية في قطار كانت ترنم بنغمتها الوطنية ، وأنا لم أفهم معاني الفارسي ولا الصربية . ولكن ماذهبت اليه النفس من التذكارات ، فعل فيها فعله فأخرجها عن كثافتها ، وسمعت مؤخراً مغنية اسبانية في مسرح الاولمبيا في باريز تتغنى بالاسبانيولية ، وتبيع بنفسجاً ترشقه على الحضور ، فكان منظرها وحركتها ونغمتها من أجمل ما رأته العين في الغرب ، وطربت به حقيقة ، وما ذلك الا للأثر الناتج عن تأثيرات الموسيقى وما يتذكر الانسان من الوقائع والحوادث

كان لنا في بر الشام موسيقى راقية ، فكادت تندثر لزهد الناس في هذا الفن لانه دليل ارتقاء الامة ، والامة كانت مشتغلة بنفسها ترجع القهقرى ، وكان المشتغلون بهذا الفن مرذولين ممتهنين ، فبينا نجد الموسيقار والمنشد في الامم الاخرى عشير الملوك والرؤساء والعلماء منعما مرفهاً اذا مات مشى في جنازته العظماء — كما فعل الفرنسيس بجنازتي سان سانس وفوريه الموسيقيين وعدوهما

من المفضلين على أمتهم ومجدوهما وقد سوهما ، ترى مثيلهما فى أرضنا مهاناً لا يؤبه له ، ان أخذ بفنه عاش فقيراً ، ومات خاملا حقيراً ، وكم من نابغة فى الموسيقى عندنا تخلى عن هبائه خشية أن يلحق به العار ، وزهد نفسه طوعا أو كرهاً بما يحبه وكان فى مستطاعه أن يبرز فيه لعلمه بضيق العيش من هذا الباب ، ولان صاحبه لا يعد فى الطبقة التى هو حري ان يعد فيها

جاء دور كان الفقهاء يعدون ساقطاً من العدالة كل من يغنى عندنا ولا سيما اذا كان غنى بالاجرة[1] ويتسامحون مع من يغنى مع جماعة من أصحابه ، وكانوا يعدونه فنا يفقر صاحبه ، ولكن الغرب على العكس من ذلك ، يفاخر بهذا الفن أعظم عظيم ، ولا يستنكف أن يأخذ نفسه بأدبه ، ويرزق عشرات الالوف منه فاذا مات مات عن ثروة طائلة ، وخلف لاهله مجداً وغنى

ولو لم نر من نهضة الموسيقى آخراً وتشريف قدرها فى مصر اليوم لسجلنا بأن هذه الأمة العربيـة جمعاء منحطة وأى انحطاط عن أمم الحضارة الحاضرة ولقلنا انها أمة مات شعورها فى كل معنى وهى والأمم المتوحشة سواء فى أوضاعها وعاداتها وأسباب هنائها وراحتها

الاستقلال والاتكال[2]

يطالع المستفيد مئات من كتب الفلسفة والادب وعلوم العمران فلا يعتم ان يستقل منها ما يأخذ مأخذه من العقول ، ويحدث أثرا فى النفوس ، ولا عجب فقد تنصرف وجهة الألوف الى خدمة العلم ، وبث الملكات الصحيحة فاذا فوضل بينهم ووضعت أعمالهم فى ميزان النصفة ، وعلى محك الاستبصار يكثر الشائل ، ويقـل الراجح . والمؤثرون فى الافكار ، فى كل الاعصار والامصار ، اندر من الغراب الاعصم والكبريت الأحمر ، على ان كل من بذر بذوراً طيبة لا ينفـك مثلوجا فؤاده مهما تأخر نباتها وإيتاؤها ، لعلمه بأنها ستؤتى أكلها عاجلا أو آجلا

---

(١) الطالع السعيد الجامع لاسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد للادفوى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ

(٢) نشرت فى مجلة المنار (١٦ رجب سنة ١٣١٩ هـ - ١٩٠١ م

اذا لاءمتها طبيعة المنبت ، وأحسنت تعهدها أيدى القائمين عليها

وقد وقع شيء من هذا ان صح حدسى للكتاب الذى ألفه المسيو ادمون ديمولان الفرنساوى وعربه أحمد فتحى بك زغلول المصرى المسمى « سر تقدم الانكليز السكسونيين » فانه أثر فى الفرنسيس أثراً حسناً وسرى قول مؤلفه فى بلاد الافرنج منذ نحو خمس سنين فترجم الى لغاتهم وتناولته ألسن الناقدين والمسلمين ، وعاد بعض المنشئين يرون رأى صاحبه وينطقون بلسانه ، ويكتبون بقلمه ، ودل كثيرمن أهل العلم على مواقع الفسادمن تربيتهم ، ونقص الاستعداد من عاداتهم ، وأشاروا الى تخلفهم فى حلبة تنازع البقاء عن جيرانهم الألمان والانكليز والاميركان تخلفاً يخشى معه أن يبتلعهم الجنس السكسوني فيكون مستقبل العالم له دون سواه

هكذا يقولون . وغير منكر ان الفرنسيس نفعوا الانسانية نفعاً لا تنكره وكفاهم مفاداتهم بأبنائهم مراراً تخفيفاً من سلطة الملوك ورفعاً لغشاوة جهالة ظلت مسدولة على أوربا قروناً ، جعلتها وراء شعوب الارض ، فخلعت ربقة الاستعباد ، وقررت حقوق الانسان ، وقواعد الحرية والاخاء والمساواة. ونشرت المعارف فى الاطراف حتى ابتذلت ، واشترك فى الاخذ من بحرها المحيط عامة الطبقات فأصبح الحراث الفرنساوى يقرأ ويكتب ويفهم أكثر من بعض من ندعوهم بالمنورين فى بلادنا . وما يأخذه الآن بعض علماء الفرنسيس على أمتهم ان هو الا من باب الاستزادة من الفضيلة ، والدعوة الى الكمال ، والسبق فى ميدان التغلب والسيادة . نعم انه ليستنشق من غالب المكتوب رائحة الغرض ويعترض على بعضهم مبالغتهم فى وصف أعراض الضعف حتى أوشكت الفائدة أن تضيع وينسب كل ما يخطونه الى التشيع والتحزب ويؤيد ذلك ان ما يكتب صادر من بلاد تأصل فيها الانشقاق الداخلي ، وراجت بضاعة الاحزاب ، وساد فيها تباين الآراء فلا يكتب الملكي أو الكهنوتى الا ويرمى ببصره الى القديم بمجده ، والتليد يبكيه وينشده ، ولا يجهر الجمهورى الا ويفاخر بما تم على يديه من ارتقاء ونماء ، ولا ينبرى الفوضوى أو العدمى أو الاشتراكى الا ويستدعى الامثلة ويستجيش البراهين اعلاناً بدعوته ، واستتماماً لرغبته ، ولكن فرنسا ما زالت

بفضل أساسها القديم أم المدنية وربيبة الحضارة وان تقهقرت فى سياستها وأخلاقها فلمرتبتها الميزة على سائر الشعوب الاروبية خلا السكسونيين ولكن صحة الوطنية التى عرف بها مساعير أبطالها ومشاهير رجالها جعلتهم اليوم يفرطون فى النصح والقدح

« استقلالهم »

وبعد فان الامم من حيث كيانها قسمان: استقلالية واتكالية فالامة الاستقلالية هى التى طبعت على حب الانفراد يعتمد كل فرد منها على نفسه لا على حكومة ولا جمعية ولا حزب ولا عشيرة ولا أسرة

وانما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول فى الدنيا على رجل

ومثالها الشعوب الانكليزية السكسونية . والامم الاتكالية هى التى يعتمد أفرادها على مجموعها من الامة أو الدولة فيتوكأ كل فرد على غيره وأعظم مثال لها الامم الشرقية حاشا سيدتها الامة اليابانية العظيمة فان التربية الاستقلالية عندها على ما يبلغنا قائمة على أعظم هيا كلها وأبناؤها أبعد المشارقة عن النشأة الاتكالية

وبديهى ان العلم وحده لا يكفى فى سعادة الشعوب ما لم يقرن بالعمل ، وفرنسا وقعت مع من وقع فى مثل ذلك من أمم الخليقة فزاد فيها التكالب على المصالح الهينة ، والوظائف اللينة ، فكثر فيها الموظفون والمحامون والاطباء والمهندسون وأهل الصحافة والادب ، بحيث تعذر قبول من تخرجهم المدارس العالية باسمها فسدت فى وجوه الناشئة أبواب الرزق لان معظمهم يرى السعادة أن يعيش فى باريس ونحوها من المدن الحافلة ليستمتع برفاهها وأنسها ولو عاش فى قل . وزهدوا فى الاشتغال بالصنائع الحرة كالفلاحة والصناعة والتجارة وذلك غير معهود عند من كان دمه سكسونياً اذ لا يرى حطة عليه أن يحترف أية حرفة كانت مهما كان علمه واستعداده ليضمن لنفسه وذويه مرتزقا فسيحاً وعيشاً استقلالياً لباباً ، فان لم يجد ما يعمل فى بلاده يغادرها ليستعمر مكاناً آخر من الكرة ، ويستوى عنده العيش بلندن أو برلين ، والعيش فى زيلندة الجديدة

أو مستعمرة الرأس أو زنجبار ، وان شئت فقل فى أقاصى صحارى أفريقية حيث الوحوش ضارية ، والسموم لافح ، والعيش مر المذاق

وتأييداً لذلك انقل هنا ما صرح به أحد علماء الاخلاق من الفرنسيس بهذا الشأن قال : « يزعمون ان شهادة العالمية عندنا باب يدخل منه الى كل سبيل ، وتسلك بحاملها فى كل مسلك ، وهى على التحقيق لا تفتح الا ثقباً كبيراً هجم عليه أصحاب الرغبات من كل صوب ، فاستغرقت الحرف الشريفة ووظائف الحكومة جملة ، بحيث وجب على الامة أن لا تساعد على شر ما برح يتفاقم أمره منذ سبعة قرون ، حتى صار جرحاً نغاراً ، وضربة مبرحة . وأعنى بذلك الشر داء الاستخدام والتوظف

« لا جرم ان الحركة التى بدأت طلائعها فى فرنسا زمن فيليب الجميل ازعج أمرها على عهد لويس الرابع عشر ، فزاد الحال اشكالا على أثر عودة الملكية الى فرنسا ، واستيلاء أسرة بوربون على منصة الحكم وصار على عهد الجمهورية الثالثة الحالية أدهى وأمر . فاذا نشأ الابناء على آسال آبائهم ولم يصلح حالهم يضيعون مجد أسلافهم ويخربون مملكة قويت على الحوادث على حين تعدهم عدتها فى شدتها ، وبيدهم انقاذها واسقاطها

« فالجيل الفرنساوى الحاضر سيء حاله ومآله ، وهو الى الكسل والجبن أميل منه الى العمل والنصب ، حتى يصح أن يقال ان البلاد به أضاعت من فتائها ، وأمست تسير الى فلاة فنائها ، ومن الاسف ان فرنسا التى كانت على مر العصور فى مقدمة من يحسن الاعمال وأول مثيرة لكل نجاح هى اليوم من حيث تهذيب أبنائها متقهقرة عدة قرون الى الوراء . وكأن تعاليمها الآن هى عينها فى القرون المتوسطة التى تركت ألمانيا وشأنها الى أن علا صوت جهورى من الشاعر كيتى (١) يبين للالمان مواقع الضعف ، ومزالق المقاتل ، ومداحض المخاطر ، ويقود الافكار الى الحملة على كسر القيود ، ونزع ربق الرق وتجديد جدة الشباب . ينادى يا قوم هؤلاء الانكليز امعنوا فى حالهم ، وانسجوا على منوالهم ، فانكم واياهم سواء فى القيم ، فما ضركم لو باريتموهم فى الهمم ؟ عملكم قليل ولا تحسنونه ، وقلما

(١) كيتى Gœthe أعظم كاتب وشاعر المانى مات سنة ١٨٧٢

تنهضون باعبائه ، وليس لكم نصيب مما أوتوا من ميز الواجب الشخصي والكفاءة الشخصية ، وهما دعامتا القوى التي تشتد بها سواعد الملل . ولما كان كيتي يصرح بهذه الافكار كانت ألمانيا بعيدة عن معاناة التجارة مقطورة فى مؤخر الشعوب ولم تمض على ذلك مئة سنة حتى استولى انصار ذلك الشاعر الكبير والمتعظون باقواله على محور التجارة فهاج نشاطهم قلق الامة التي حذوا حذوها . وان الانكليز لينظرون اليوم نظر المرتجف الى انبساط ظل النفوذ الالماني بهذه السرعة والقوة ويزعمون انه لا بد من أن تخلف طوابع البرد الجرمانية الطوابع الانكليزية قريباً .

« كل هذا نتيجة تغير التربية وانتشار المعارف بين الافراد وكثرة الكفاءات فى كل فروع العمل . فمن العقل والحالة هذه ان يتدرع الفرنسيس بسلاح من العمل مفيد ، ويعتاضوا من الركوب على متن عمياء بالجري فى طريق جديد من اتقان المبادىء الصحيحة والاخلاق الفاضلة .

« من رقاعة الفرنسيس أن يعتقدوا علو كعبهم فى كل منحى ومنزع . ولو ذهب أحدهم الى ألمانيا ودرس أحوالها عن أمم ، لرأى شعباً كان يشكو مما نشكو منه ، داء أصيب به زمناً فشفى نفسه من أوصابه . يرى السكسونية مجسمة بأبهى مظاهرها فيقدس « كارلايل »[1] ظهيرها ونصيرها ، ويقيس حاله بالانكليز على انهم سباق غايات وأصحاب آيات بينات . ثم اذا قضى من تينك المملكتين لبانته ، وعرف بالنسبة اليهما حالته ، يركب البحر المحيط الاتلانتيكي ليتبصر فيما تورثه جدد الفضائل فى هذا القرن الحديث وينجلي له الفرق بين رغائبه ورغائب الاميركان .

« لفرنسا نظارة للمعارف العمومية ، ولاميركا مدرسة للتربية ، فالاولى تعلم والثانية تربي . الاولى تلقن أبناءها كلمات يحفظونها ، والثانية تعلم مبادىء يسيرون عليها . تعد فرنسا أدمغة لحفظ قانون وتهيىء أميركا أذرعاً للعمل ، الاميركان رجال عمل ، والفرنسيس ليسوا كذلك . يغرس الاميركان فى نفوس ناشئتهم شهامة الارادة التي لا تجدى أجمل الهبات الخلقية بدونها ، ولا يكون العلم نفسه الا

---

(١) كارلايل Carlyle كاتب اسكتلندي شهير مات سنة ١٨٨١

عطلا من النفع مع فقدها ، وهذا هو القانون الذى سنه لهم فيلسوفهم اميرسون [1] تلميذ هيكل الالمانى [2] القائل فى فلسفته : ان الحياة ليست شغلا عقلياً ، ولا مناقشة ومهاوشة ، بل الحياة انما هى العمل . واقد علق فى أعلى باب كل مدرسة بأميركا شعار معناه : ان تهذيب الخلق أسمى غاية المدرسة ، وعلى الشبان أن يحسنوا معرفة الحياة بارادة ثابتة . »

ثم توسع الكاتب فى بيان نقص تربية أبناء وطنه وعاد يقول :

« يلزمنا رجال مهذبون لا رجال متعلمون ، وفى فرنسا طبقتان من المدارس أولاهما للصغار وثانيتهما للكبار ، وبعبارة أجلى مدارس الصناع ومدارس المفكرين ، أما حسن التربية الانكليزية السكسونية ورجحانها على التربية الفرنساوية ، فهى قائمة فيما أوتيه بعضهم من الصفات الشخصية مثل المروءة وحسن الخلق والحصافة والبداهة والجرأة والاقدام على المشروعات والاكتشاف والافتتاح والمخاطر . فبدلا من أن تنمى فرنسا فى نفوس أبنائها هذه الصفات تغرس فيهم ملكات حب التآلف والاجتماع . تبث فيهم التأثر بدل المروءة . وتبث فيهم الخشية من أقوال الناس فيشاكل المرء الجمهور بأقواله وأفعاله بدل تنشئتهم على خلق يبقى فيه الانسان مستقلا بنفسه . وبدل الحصافة التى يتأتى بها للمرء ايجاد الاشياء بذاته تقوى فيه ملكة الذاكرة التى تعيد عليه ذكر الاشياء التى يحفظها مما عثر عليها غيره بالتجارب ، وعوضاً عن البداهة التى يتمكن بها المرء من تطبيق ما أوجده بنفسه تبث فيه الثقة فيصبح عرضة لاغراض حكامه . وبدل الجرأة تبث فيه الحذر وبدل الاقدام على المشروعات والفتوح والاستنفاض (فتح البلاد) تبث فيه ملكة الاقتصاد والسلم وحب السكن . وبدلا من اقتحام المخاطر تحسن له الرضى بالاستخدام . »

ثم أجمل الكلام هنا على الفلاحين والصناع والتجار والعملة من مجموع الامة الفرنساوية وانتقل الى الخيار من قومه وعنى بهم العلماء والفلاسفة وأهل البصر فقال مستنداً الى أقوال العلماء :

---

(١) اميرسون Emerson فيلسوف أميركى مات سنة ١٨٨٢

(٢) هيكل Hegel فيلسوف ألمانى مات سنة ١٨٣٥

« ان دماغ الجنس السكسوني متمدد ومحدود ، وذكاءه تحليلي وجنسه جنس العمل والكد وعلى عكسه دماغ الجنس الفرنساوي فانه موسع وذكاؤه تأليفي وهو خيالي يعشق التصورات وبالجملة يعني الجنس الاول أبداً بالحقائق على حين يفضل الثاني الافكار والخواطر ، يجيد السكسوني في الغالب القيام على الاعمال المادية وبعض الفرنسيس يحرزون قصب السبق في ميادين الذكاء المتسعة الاطراف

« ألا وان قيمة الجنس السكسوني بمجموعه وقيمة الجنس الفرنساوي بخياره فالافرنسي المتوسط لا يساوي الانكليزي المتوسط والافرنسي العالي يساوي أكثر من انكليزي عال ولكن الخيار من الفرنسيس لا يشغلون المكانة التي يستحقونها لانهم مغلوبون للاخلاق الحالية لم يستوفوا شروط النفع ولا أتموا أدوات التهذيب

وأنجح طريقة يجب على فرنسا سلوكها تحسين تربية خيارها وتربية أفرادها ومزج الخاصتين السكسونية والافرنسية وتطبيق تربية جمهور الانكليز على تربية خيار الفرنسيس ليأتي الغد ولفرنسا من وراء هذه التربية شعب صغير كالشعب الآثيني يهب لها فاتحين ذوي أفهام ، ورجالا صحاح الاحلام ، يساوون الجيوش ، ويوازون كل عدد وعدة ، ويخدمون أمتهم خدمة ارخميدس [1] وينقذون وطنهم انقاذ تيمستوكلس [2] . »

« اتكالنا »

بمثل هذا اللسان يخاطب الكاتب الفرنساوي أمته ويقرعها تقريعاً أمر من الصاب والعلقم ، لتستفيق من غشية تخشى مغبتها وتفلت من الوقوع في مخالب أسود السكسون لئلا يكون حظها في الوجود حظ الامم البائدة كالرومان واليونان والفرس والعرب . وما القصد من ايراد كلامه بنصه الا ليحصل التمثيل بيننا وبين أمة نشابهها في الاعراض وان كانت أعلى منا جوهراً .

---

(١) ارخميدس Archimède أحد مشاهير المهندسين القدماء ولد في سيراكوس احدى مدائن صقليه حوالى سنة ٢٨٧ ق . م ومات سنة ٢١٢ وحاصر الرومان وطنه فدافع عنه ثلاث سنين بقوة بنايات حيلية أو ميكانيكية

(٢) تيمستوكلس Thémistocle قائد أثيني شهير ٥٣٥ - ٤١٠ ق . م

ولعله يخيل لبعض سكان هذه الديار ان الفرنسيس مثلهم فى الانحطاط ، وأن لهم بهم قدوة حسنة وأعظم سلوى ، ولكن شتان بين حالنا وحالهم ، ورجالنا ورجالهم ، وحضارتنا وحضارتهم. أمة تشخص الداء وتفكر فى وصف الدواء أو تشعر بنقصها وتسعى الى كمالها . وأمة موقنة بأن داءها عين الصحة لا بأس عليها ولا خشية من ناحية حياتها ، يرضيها نقصها فلا تريد استبدال غيره به وكل من محضها النصح رمته بانحلال عقدة الوطنية ، والمروق من عهود الحمية وصدق التابعية

لاجرم ان الرجل الفرنساوى الراغب فى الاستخدام ، لا يشبه الرجل المصرى أو السوري أو العراقى مثلا فان الاول يستعد ليحسن الاضطلاع بما يوسد اليه من أمر أمته ومعظم هؤلاء على نقص فى المدارك وانحطاط فى الفضيلة يطمحون الى السعادة والسيادة بلا سابق معرفة سوى أواصر القربى أو التقرب ، أو أواخى المؤاخاة والتزلف أو وشائج الدرهم والدينار

ولقد أصبح من الرأى المقرر بين الناس أن كل من ليس له علاقة بالحكام كعضو أصيب بالآكلة لاحيلة فيه الا بالبتر أو الموت ، بيد انه لا تثريب على الفقير اذا رشح ابنه لأى خدمة كانت ليرتفع بها من الدنية ، مادامت البلاد صفراً من أصناف المعاش الذي يزعج صاحبه عن العيش الاتكالى ويورده موارد الاستقلال ، بل اللوم كل اللوم على رجل يعد من نواصى أهل وطنه وعليهم وله من العقار والقرى ما يسد عوزه وعوز مئات معه وهو على ماله من الاعتبار بين جيله وقبيله يسف الى الاستخدام فى وظيفة ليتباهى بها أمام العدو والصديق

أعرف رجلا فى أحدى مدن الشام الحافلة له عراقة فى محتده ، وأصالة بين قومه وسعة من دنياه ، وتراه مع هذا يصرف نهاره وليله فى نيل الزلفى من الامراء كبتاً لخصومه ، فيبذل كل عام فى هذا السبيل من الصفراء والبيضاء ، ما يكفى لاعالة ألف نسمة من أصحاب البأساء ، وكلما طعن فى السن يزداد غلواً فى مباديه وأصراراً على نكاية أعاديه ، وهو دائماً أجول من قطرب واشغل من ذات النحيين ، ومساعيه أبداً مخفقة ، وآماله مخيبة . وهكذا حال خصمه اللدود له مال وبنون ومقام بين أهل حيه كريم ولكن لا يهدأ له بال الا بالجلوس على

أرائك الحكم ، ومقاعد التصدر، يتلمس لبنيه اذناً بملازمة الدواوين . مزاحمة لاولاد الفقراء ليستأثروا بعد بالرواتب دونهم ، وينالوا المعالى بنفوذ والدهم عفواً صفواً

ولو عقلا لاستعاضا عن التلهى بهذه السفاسف بأدارة شؤون مزارعهما الواسعة وتحسين طرقها وتنمية غلاتها وثمراتها ولكن هو حب الرئاسة يستلب الالباب وفى الامثال « ياحبذا الامارة ولو على الحجارة »

ولطالما سمعنا أن فلانا غادر سكنه ومسكنه ، تاركا دخلا يكفيه وعياله لأن يعيش عيش الاستقلال فيوكل به من يسرق نصفه لينتظم فى سلك الموظفين ويأخذ من استخدامه ما يوازى النصف الذي فقده بغيابه ويغتذى من دماء الامه سحتاً بحتاً وحراماً محضاً ليقال عنه انه من الموظفين ويخاطب بالفضيلة والسعادة ثم اذا كثر سواد أقرانه يقضى حياته قلق الضمير ، وربما أنفق كل ما يملكه من تراث آبائه ليرتقى الى وظيفة أعلى من وظيفته ، ويسبق من سبقوه أو هم لاحقوه . وما الموظفون فى الحكومات الاستبدادية براغبين أن يعدوا من ممثليها ليحموا ما يملكونه من اعتداء المعتدى وتعسف الظالم كما هى دعواهم بل ليكونوا جلادين فى تلك الدولة ويسوغ لهم أتيان كل منكر ارادوه بلا وازع ولا رادع .

ألا وان الامثال لكثيرة على من آثروا العيش الاتكالى ورضوا بالاسفاف الى الدنايا كاصحاب الاوقاف ممن يرضون بالكفاف من العيش ويقنعون بدريهمات تأتيهم من وراء أجدادهم ، أضف الى زمرتهم من حبسوا أنفسهم فى الصوامع والجوامع مثل المدرس والمؤذن والخطيب ممن يكتفون بالنزر من المشاهرات يقبضونها ببذل ماء المحيا ، ويصرفون لاجلها من الاوقات مالو صرفوه فى بيع الثرى لأثروا به ، ثم يرقبون ما يأتيهم من أجور الطلاق والمناكحات ويتلمظون بطعام الولائم والوضائم ويقنعون بتقبيل الايدى ومصافحة المريدين . وكذلك حال الرهبان والقسيسين وسائر من يتصرف باسم الدين ، وهم فائضون عن الحاجة فكلهم يتقربون بالفاقة الى مولاهم ويستوكفون أكف الصدقات ، وينتظرون قيم الصلوات والدعوات ، وهذا الخلق مستحكم من المسلمين بحكم التربية أكثر منه بغيرهم من الطوائف

اليك شرح الاتكال المجسم الذى شكا منه كبار الفرنسيس ، وهو عندنا فى أرقى درجاته ولا نشكو ولا نتبرم ، وأما شكواهم من كثرة المرشحين للحرف الأدبية فيقابله شكوانا من قلتهم اذا لم نقل من فقدهم — يموزنا الصحفى العلامة ، والطابع الماهر ، والطبيب النطاسى ، والمحامى الحاذق ، والاقتصادى المدرب ، والرياضى المنجذ ، والطبيعى المتعقل ، والمهندس الفطن ، والسائح الثابت ، والممثل الفاضل ، ممن تبرم بكثرتهم فى فرنسا صاحب سر تقدم الانكليز السكسونيين ، ولكننا نحن فى غنية عن هذا العدد الدثر من الحاجب والكاتب والمصاحب ، والجاسوس والمسجل ، والرئيس والمرءوس ، بل وألوف مؤلفة من اصحاب الرواتب بلا عمل الذين يأكلون مال الأمة بالباطل ، ويعيشون على عاتقها حملا ثقيلا ، فلاهم بوجودهم ينفعونها ، ولا هم عن مغرمها غافلون

أين حال الأغنياء والأعيان المتهافتين على المناصب فى بلادنا من أهل تلك الطبقة فى انكلترا مثلا حيث الحكومة تخطبهم ، والشعب يطلبهم ، وشتان بين خاطب ومخطوب

كتب أحد سراة بريطانيا الى صديق له يقول : دع الناس يطلبون الارزاق من الدولة فانا لا أنحو منحاهم لانى أقدر أن أكون غنياً بتسامى عن الدنايا ، ولا أرتضى أن أشين خدمتى لوطنى بفوائد ذاتية فانى أعمل فى بستانى بيدى وأجتزىء بالقليل من النفقة عن الكثير

وهو كما رأيت كلام من يوقن ان الامارة ليست بمذهب طبيعى للمعاش بل كلام من ارتقى وتهذب وعلم علم اليقين أن الحكومات ليست الا خادمة للأمم وأن الشعب فى غنية عنها ولا غنى لها عنه ، فمتى يكون مثل هذا القول لسان حال أعيان بلادنا حتى لا يكونوا على أمتهم أضر من العث فى الصوف والدودة فى الكرمة ، ولكن المشارقة انغمسوا فى مضال الجهالة منذ قرون حتى أصبحوا يقدسون حكامهم ومن انتسب اليهم وغالوا فى تعظيمهم الى أن بلغوا بهم منازل الالوهية ، وأنشأوا يستحلون لهم المحارم ، ويطلقون عليهم ألقاب الربوبية

وما برح الناس يبحثون عن داء المجتمع الانسانى ، ويصفون له الأدوية وهو لا يزداد الا تفشيا ، وقد أعضل ما يسميه الغربيون بالمسألة الاجتماعية حتى حار

فى طبها رجال العلم والسياسة وأصبحت شغلا شاغلا لاهل المدارك السامية . ولذا قال صاحب سر تقدم الانكليز السكسون : ليست المسألة الاجتماعية عبارة عن مساعدة الافراد كما أن مسألة الحياة لا تقوم بكثرة تناول الأدوية والعقاقير اذ ليست المساعدة أو العقاقير من وسائل الحياة الطبيعية وليست الحكمة الا ما أدت الى الاستغناء عن تلك الوسائل الصناعية . وليس من حل للمسألة الاجتماعية الا جعل الافراد بحيث يستطيع كل فرد منهم أن يقوم بأمر نفسه ، وأن يرتقى بجده وعمله لان سلامة الاجتماع كالسلامة الأخروية تقوم بكل واحد على حدته وعلى كل واحد أن يسعى اليها ، وقولى هذا لا يروق فى أعين الذين اتخذوا السياسة حرفة وغيرهم ممن طلبوا رزقهم من انحطاط الامة ، وضعف مدارك الطبقات النازلة ، وكانت منفعتهم فى بقاء الناس دائما على حالة يشبهون فيها القاصرين حتى يتيسر لهم أن يكونوا عليهم أوصياء .

ونحن لو استشهدنا التاريخ لرأينا اجدادنا كانوا فى منازع حياتهم أشبه بالجنس السكسونى لا يعرفون مع بسطة الجاه واتساع الثروة والملك الا النشأة الاستقلالية بعيدين فى كل أطوارهم عن السرف والترف فقد اشتهر من سيرة الصديق الاكبر رضى الله عنه انه كان يغدو كل يوم الى السوق فيبيع ويبتاع وكانت له قطعة غنم تروح عليه وربما خرج هو بنفسه فيها وربما رعيت له وكان يحلب للحى أغنامهم . فلما بويع بالخلافة قالت جارية منهم الآن لا يحلب لنا منائح[1] دارنا فسمعها فقال : بلى لعمرى لاحلبنها لكم وانى لارجو أن لا يغير بى ما دخلت فيه . فكان يحلب لهم . ثم قال ما تصلح أمور الناس مع التجارة وما يصلح الا التفرغ لهم والنظر فى شأنهم فترك التجارة وقيل أراده الصحابة على تركها وانفق من مال المسلمين ما يصلحه وعياله يوماً بيوم فكان الذى فرضوا له فى كل سنة ستة آلاف درهم وقيل فرضوا له ما يكفيه فلما حضرته الوفاة أوصى أن تباع أرض له ويصرف ثمنها بدلا مما أخذه من مال المسلمين .

ولما فرض عمر بن الخطاب رضى الله عنه العطاء قال للمسلمين انى كنت امرأ

(١) منحه الناقة جعل له وبرها ولبنها وولدها وهى المنحة والمنيحة

تاجراً يغنى الله عيالى بتجارتي وقد شغلتموني بأمركم هذا فما ترون انه يحل لى فى هذا المال ، وعلى ساكت فاكثر القوم فقال: ماتقول يا على ؟ فقال ما أصلحك وعيالك بالمعروف ليس لك غيره فأخذ عمر قوته . وان لنا فى غير هذين الامامين من رجال سلفنا الصالح الاسوة الحسنة فى فضيلة الاستقلال وترك الاتكال ولنا الاسوة فى الامم الحية لعهدنا التى نرى آثارها باهتين شاخصين ، فالعبر بين أيدينا ومن ورائنا وعن أيماننا وشمائلنا ولكننا لا نعتبر

الهجرة

أربعة أحوال تعمل فى تكثير سواد الامم : الهجرة والاستيطان والولادات والوفيات وبنقيضها تقفر البلاد وتقل الامم . ومحور الهجرة يدور فى الاكثر على تحصيل القوت والفرار من ظلم خصوصاً أيام كانت المجاعات فى القرون الاولى والوسطى من أكبر العوامل المهددة للشعوب وكانت تغذية الجماعات الكبرى مناطة بمحصول السنة حتى كان تأخر وصول الحبوب المشحونة فى البر والبحر يحدث مخاوف هائلة ويثير مناوشات وثورات . وكانت الفوضى والحروب تجعل المواصلات صعبة أو متعذرة ويهلك سكان المدن جوعاً . وتحتكر المدن الحبوب فى أماكن خاصة وتدخرها لحين الحاجة أما سكان القرى والارياف فكانوا يقاسون الامرين ولا يجدون غير الهجرة باباً لنجاتهم بارواحهم وأرواح ذراريهم وهذا مادعا الى اقفار كثير من الاصقاع فى الشرق والغرب لان من ولد من الاسر المهاجرة لم يوازِ عدد من فقدتهم البلاد بهجرتهم لها (١)

جاءت ازمان على البشر كان الشرق أو أفريقية وآسيا أعمر من الغرب وكانت آسيا تقدم كثيراً من أبنائها ليكونوا جنداً فى الجيش الرومانى ورومية كانت حاكمة على معظم أصقاع أوربا وجزء كبير جداً من آسيا وأفريقية وسلطانها فوق

(١) كتاب الشعوب والاخلاق تأليف هنرى سكريتان

Henri - F. Secrétan : Les populations et les mœurs

كل سلطان ومامملوك تلك الايام الا أقيال يخضعون لصولجان رومية وقد كنت ترى أناساً من بلاد الشام فى كل مكان كما تراهم الآن وكان منهم فى جيش جرمانيكوس القائد الرومانى عدة كتائب عند ماحمل حملته على الرين .

قال سكريتان : ان القرون الوسطى باقطاعها وما كان فيها من اللصوصية والاخلاق الوحشية وقلة المواصلات والحياة الزراعية والصناعية الاهلية وتنوع اللهجات وحكومة الجماعات Polyarckie والاشمئزاز من الحياة والتشتت السياسى الذى هو من خصائص تلك القرون كل ذلك مما يتمثل لعينى بقلة الرجال وطول اقفار البلاد فاقفر العالم الرومانى وظل الشعب زمناً على نسق واحد ثم زاد بانشاء المدن وتوطيد دعائم المركزية السياسية التى تسهلت أسبابها بنمو الموارد الاقتصادية والايدى العاملة التى أنشأتها . ومن المدن تنبعث أبداً حركة تنظيم القوة العامة . فصاحب الاملاك يعيش بما تدر عليه املاكه على حين تضطر المدن أن تطلب ذلك من التجارة وأن تضمن حقوقها فى البلاد القاصية بتأمين السبل والتجارة .

قال وما المصانع العظمى التى قامت فى القرن الثالث عشر للميلاد وما تلك البيع والمعابد الا أثر من آثار زيادة السكان فى أوربا وان الناس أصبحوا يهتمون لامور أخرى غير حفظ حياتهم مباشرة . والسكان من العوامل الضرورية فى التبدلات السياسية . وعندنا ان الشعب هو أرض التاريخ الذى تنبت فيه الاوضاع والافكار . ولما نمت النفوس منذ القرن الحادى عشر فى حمى أسوار المدن والمقاطعات المنظمة ظهرت قوة جديدة أمام الاقطاعات وانتهى التماسك السياسى بقيام المدنية الحديثة وأدى نمو السكان نمواً عاماً بقاعدة الانتخاب الطبيعي أي الافضل والاحسن الى شكل جديد فى الحياة وتحسين الاخلاق وتدميثها وكثرة السكان شرط فى قيام المدنيات العليا وفي تأسيس الاملاك العظمى وهى التى تزيد حياة البشر حركة وغنى وبهجة .

نعم كثرة السكان شرط فى الحضارة ولكنها اذا بلغت درجة تؤدى الى قلة سريعة فى المواليد ربما كان فيها الخطر على المدنية . والمدنيات لا تقوم الا فى بعض أدوار التاريخ على ان الرفاهية العامة والامن اللذين هما من أهم العوامل فى المدنيات

الكبرى قد يكون منها قلة عدد المواليد وهذه القاعدة تجرى فى كل مكان اليوم فى المانيا وايطاليا وانكلترا وقد كانت فرنسا أول من وصلت الى هذا المعدل فتعدلت وفياتها مع ولاداتها مع أن فرنسا كان عدد سكانها فى أواسط القرن الثامن عشر عشرين مليوناً وانكلترا ثمانية ملايين واسبانيا ثمانية وايطاليا عشرة والمانيا كلها مع النمسا وتوابعها اثنين وعشرين مليوناً وروسيا فى أوربا اثنى عشر مليوناً وقد زادت كلها على كثرة من هاجر منها الى أميركا فى القرون الثلاثة الاخيرة ومع هذا زادت كل مملكة ولكن زيادة بلاد الانكليز والجرمانيين كانت أهم وأعظم فبلغت بريطانيا العظمى اليوم نحو خمسة وأربعين مليوناً وفرنسا نحو أربعين مليوناً والمانيا خمسة وستين مليوناً والنمسا والمجر خمسة وخمسين مليوناً وايطاليا خمسة وثلاثين مليوناً واسبانيا ثمانية عشر مليوناً فمنها ما تضاعف ثلاث مرات ومنها مرة ومنها مرتين .

وقد نفى سكريتان أن تكون قلة السكان ناشئة من فساد الآداب وقال : ان الروس باقرارهم أنفسهم من أعظم الموغلين فى المفاسد والموبقات ومع هذا يزيد سكان الارياف عندهم . والسبب فى قلة المواليد هو فى الحقيقة ارادة الرفاهية . الولادة لا تشكو من الفقر ولا من حرية الفكر ولا من حرية الاخلاق وما خرابها آت الا من كثرة الحذر الذى هو ابن الطمع .

***

عرف السورى منذ القديم بحب الهجرة للكسب واحراز المجد والفينيقيون أو سكان الساحل الاوسط من هذا القطر كانوا رواد الحضارة وربابنة البحار فى سواحل البحر المتوسط حتى بلغوا شطوط الجزر البريطانية فى أقصى شمالى أوربا وانشئوا المكاتب التجارية فى جنوبى القارة الاوربية وشمالى افريقية وكان من أخلاقهم ما يشبه هذه الاعمال والهجرات ولا سيما على عهد الحكومة الرومانية حتى اذا جاء الاسلام كانت منهم جيوش وقواد وقضاة تسافر الى القاصية ورجال الشام كانوا فى مقدمة الفاتحين للاندلس فى الغرب وهم الذين فتحوا الفتوح فى الشرق وأوغلوا فيها حتى وصلوا الى بكين عاصمة الصين وضربوا الجزية على صاحبها .

وبعد فان فتن التتار والصليبيين أضعفت حال البلاد وقللت سكانها خصوصاً

على عهد حكومات الاقطاعات الظالمة فقلت الولادات وكثرت الوفيات والامة المظلومة في الغالب يضعف تناسلها ويكثر الموتان في أولادها بل تندر النضرة في وجوه أهلها ولم تقصر الحوادث السماوية في انتياب هذه البلاد فكانت الزلازل والاوبئة تحصد أهلها بالالوف وما بقي منهم يهلكه الظلم ، وقلة العلم .

حتى اذا جاء القرن الماضي ونشر خط كلخانة ووضعت التنظيمات الخيرية ودخلت البلاد العثمانية في طور أحبت فيه احتذاء مثال الغربيين في ادارتها وضعفت سلطة العمال بعض الشيء وقوي ارتباطهم بالمركز خصوصاً بعد انشاء الاسلاك البرقية التي سهلت وصول الشكاوى الى العاصمة بعض التسهيل وأخذ الفلاح يأمن على زرعه وضرعه بالنسبة للماضي والتاجر في المدن قد تنجو من البوائق متاجره وكثر بعد حوادث سنة ١٨٦٠ اختلاط أهل هذا القطر بالغربيين وأنشأت الجمعيات الدينية مدارسها الراقية في المدن والقرى . بعد كل هذا عادت النفوس تنمو خصوصاً في لبنان بعد نظامه الجديد وارتفاع أعلام الامن في ربوعه وأصبح من الندرة الاغتيال والاقتتال فيه فكثرت نفوسه .

واذا كانت زراعة لبنان ضعيفة تعد بين الزراعات في الدرجة الثالثة أو الرابعة لم يقم بمعاش سكانه فاخذوا يهاجرون أولا الى البلاد القريبة منهم ولما تنوقلت الانباء عن نجاح جماعة من تجاريت لهم في أميركا سمت الهمة ببعضهم الى السير على آثار من سبقوهم وساعد على ذلك اتصال آسيا بافريقية وأوربا وأميركا بالبواخر فوفق بعض من هاجروا من لبنان الى جمع جانب من المال فاشتهر بين قومهم نجاحهم وأخذ يتبعهم في خطتهم الاقرب فالاقرب من سكان البلاد وكان أهل الجبال وهم معتادون القلة وشظف العيش في الجملة هم الناهضون لهجرة بلادهم . ولم تمض بضع سنين حتى سرى داء الهجرة الى الاصقاع المخصبة من أرض الشام مثل وادي الاردن ووادي العاصي وسهل البقاع وسهل حوران فجاراها جبل لبنان وجبل عامل وجبل حرمون وجبال عكاء وجبال اللكام وجبال الخليل واشترك السهل والوعر في الهجرة ونال من آثارها دمشق وبيروت وحلب والقدس كما نال أحقر قرية .

واشتهر في الاكثر من ارتاشوا واغتنوا وآبوا الى بلادهم فعمروا لهم دوراً

على الطرق الغربية واقتنوا الاملاك وأقاموا العقارات وأخذوا بحظ من الرفاهية ونسى الناس أو لم يذكروا من هلكوا وتشتتوا فاعتمنا وقد حسبنا الراحل عنا والراجع الينا الا وقد أصبح المهاجرون زهاء أربعمائة ألف رجل على أقل تقدير من السكان مهما بالغنا فى تقديرهم وعددنا فى جملتهم بعض البوادى لا يبلغون أكثر من أربعة ملايين وقدر بعض الصحافيين عدد المهاجرين من السوريين بخمسمائة وسبعين ألفاً وغالى بعضهم فقدرهم بزهاء مليون ويمكن أن يجاب عن هذا التقدير الكبير بالاثر الحادث عنه أى باضافة عدد من الاولاد الذين كانوا يولدون لهذا القدر من المهاجرة لو بقوا فى بلادهم من أزواجهم أو تزوج العزب منهم فى السن المعينة للزواج فى هذه البلاد .

خسرت البلاد من وجهين فى الجملة وربحت من وجهين خسرت البلاد من عمل هؤلاء الشبان المتغيبين سنين عن أوطانهم وعن تعطلهم عن التناسل وربحت مما حملوه الى الشام من النقود والتهذيب الغربي ولكن الخسارة أعظم بدليل أن الثروة هى العمل لا النقود كما يقول علماء الاقتصاد وأن التهذيب الذى حملوه ناقص لانه علمهم أموراً رفعت من شممهم فلم يعد يستطيع المهاجر أن يقيم فى قريته اذا آب اليها بعد تغيبه عنها بضع سنين اذ يرى الفرق محسوساً بين ما شاهد فى بلاد غيره وعهد فى بلاده ويتأفف من عمله الصغير فى الزراعة أو الصناعات الضعيفة فلا يلبث أن يعود أدراجه الى أميركا ويختار الموت هنالك على البقاء فى أرض ذلة وقلة .

ولذا لا تعجب اذا رأيت مئات من الدور الفخمة التى عمرت بدراهم أميركا فى هذه الديار خالية من سكانها يلعب فيها الجرذ والفار ولا من يقطنها لان بناتهم عادوا فرحلوا اما طلباً لثروة غير التى نالوها وصرفوها كلها فى انشاء دورهم واما لضيق صدر نالهم من سوء ادارة وفساد نظام وهذا قليل .

قال قنصل فرنسا فى تقريره الاخير على بلاد الجليل : ان هؤلاء المهاجرين ينفعون بالاجور التى يؤدونها لشركات الملاحة ولكنهم يضرون البلاد فى ارتقائها الاقتصادى اذ يحرمونها من الايدى العاملة وقد نجحوا بأن أسسوا فى البلاد التى هاجروا اليها (أميركا الشمالية والجنوبية وأوستراليا وأفريقية الجنوبية أو مصر)

مستعمرات مهمة للغاية وكثير ممن غادروا بلادهم حفاة لايملكون أجرة المركب الذى يقلهم وهم فى الدرجة الرابعة قد عادوا اليها يحملون الدنانير فى جيوبهم أو الاوراق المالية . وقد اقتبسوا الاذواق والعادات الغربية وأنشأوا يستخدمونها فى بيوتهم وهم يبتاعون الاراضى وينشئون الزراعات الكبرى وأكثر العائدين منهم على ما أظن هم اللبنانيون والبقاعيون .

قال : وأما سبب الهجرة فلارتفاع وصاية الحكومة عليهم ولعدم قوانين لحماية الزراعة ولندرة مساهد المعاونة والاحسان ولارهاق العشارين والمرابين ولكسل لا ينفض غباره الا بالاقلاع عن البلاد وحباً بالارباح السهلة واقتداء بمواطنيهم المغتربين ولجذب البلاد الجديدة لهم . وبينا نرى الوطنيين ولا سيما من سورية يهاجرون نرى الاجانب يهاجرون اليها ولاسيما فى فلسطين (أى الصهيونيين) اه .

وبعد فقد كانت الهجرة مقصورة بادىء بدء على المسيحيين فأخذ اخوانهم المسلمون يقتفون آثارهم وكثر المهاجرون من جميع الطوائف فى السنين الاربع الاخيرة عند ما طبقت الحكومة قانون الجندية على عامة شبان هذا الوطن فكان الوالد يسفر ولده فى العشرين والخامسة والعشرين فأنشأ يرحله اليوم فى الخامسة عشرة بل وفى الثانية عشرة لينجو من الخدمة العسكرية أو ليجمع بدله النقدى قبل أن تصيبه القرعة وبعد أن تفاقم شر الهجرة فى العهد الاخير أرادت الحكومة أن تمنع الشبان من السفر فكان ذلك مورد عيش جديد لارتشاء بعض الولاة والمتصرفين والقائم مقامين ورجال الشرطة وكثرت سماسرة المهاجرة حتى لم يتركوا مزرعة الا ولجوها وأخرجوا منها أعزة أهلها وسهلوا لهم سبل الهجرة ووجد حتى الفقير المعدم من يقرضه على أن يوفيه من عمله فى ديار المهجر وزادت المنافسة بين شركات الملاحة فاصبح السفر ميسوراً من بيروت الى نيويورك بعشر ليرات وزاد الصادر وقل الوارد . وكلما أمل المؤملون أن تهدأ أحوال البلاد تعقدت مشاكلها الداخلية والخارجية وانتشرت عن البلاد أخبار السوء فتأخر عن العودة اليها أبناؤها الذين هجروها .

هذا والحكومة لم تتذرع بأدنى سبب لنزع هذا الخلل فى حياة البلاد من

أصوله بل ان النوائب الاخيرة التى صادف وقوعها فى عهد الدستور لم تزد البلاد الا فقراً اذ اضطرت الحكومة أن تزيد الضرائب والعشور والرسوم فضعفت الزراعة وأكثر من ثلاثة أرباع هذه الامة تعيش من أرضها وارتقت أجرة العامل الى أعلى من منسوبها فاصبح فى بعض الاصقاع الزراعية من المتعذر القيام باعمال الزراعة على ما ينبغى لصاحب ملك ومزرعة لأنه اذا أعطى العامل فى اليوم ثلاثة أرباع الريال أو الريال لا يبقى له فى آخر السنة ما يوازى نصف أيجار أرضه ولولا أن بعض البلاد التى أعوزتها اليد العاملة مثل البقاع استعاضت عنها بما جلبته من الآلات الزراعية الحديثة كالحصادة والدراسة والحراثة والذراية والطحانة لأمست زراعتها بائرة ولو جرى أهل هذا القطر على سنة أهل أطنة (أذنة) فى قليقية من آسيا الصغرى وأكثروا من الادوات الحديثة لتم لهم الغنى وعوضوا ما فاتهم من عمل العاملين ولعاد جديبها خصيباً ونالوا من أسباب الثروة حظاً عجيباً .

اذا قدرنا ثروة السوريين فى مصر والسودان وأميركا وكندا وأوستراليا والترنسفال ومدغسكر والسنيغال بمئة مليون جنيه [1] وهو أقل تعديل لان نصف هذا المبلغ يملكه السوريون فى مصر فقط وفرضنا أن نصف المهاجرين أحبوا العودة الى أصقاعهم يحملون خمسين مليون جنيه من النقود وما زكنوه وتعلموه من أساليب الصناعة والزراعة والتجارة تفتح بالطبع موارد اقتصادية جديدة فى البلاد اذا صحت قبل كل شىء نية الحكومة على توطيد دعائم الامن واحقاق الحق وذلك باختيار طبقة راقية من العمال والضرب على أيدى الجاهلين والمرتشين منهم .

نعم اذا قامت الحكومة بواجبها الادارى تستميل المهاجرين الى العودة وتحبب اليهم بلادهم التى يؤثرون أن يكون لهم فى ربوعها من المغانم نصف ما يتمتعون به فى ديار المهجر فتقوم سورية وحدها بعد بضع سنين بسد العجز من ميزانية الدولة العامة مهما كان مقدارها .

***

(١) لا تقل فى الحقيقة ثروة المهاجرين من الشاميين عن ثلثمائة مليون ليرة ذهب

وبعد فيكاد يكون فى درجة الثبوت ان البشر نما عددهم منذ عرف التاريخ على الرغم مما نالهم من الطوارىء التى ذكرها التاريخ من مثل الحروب والأوبئة أو الاسباب الاخرى التى تفقر النمو وتقلل التناسل . ومع هذا فقد كان النسل كثيراً فى أوربا منذ بضعة قرون وان كان يكثر موت الاولاد فى الطفولية أكثر من اليوم وتلمّهم الاديار جانباً من الرجال والنساء يتعطلون عن التناسل وليس ترك الارياف والقرى ونزول الحواضر والمدن مقصوراً على بلد خاص أو صقع معين بل هو ظاهر فى كل مكان فى البلاد الاوربية القديمة مثل سويسرا والمانيا وفرنسا وانكلترا ونروج والبلجيك وهولاندة ظهوره فى البلاد التى أخذ سكانها بالنمو مثل الولايات المتحدة وكندا واوستراليا فترك الارياف عام يشترك فيه جميع الاجناس : السلتيون كاللاتين ، والسلافيون كالروس والبلقانيين ، والسكسونيون كالانكليز ولا يظهر أن للاوضاع السياسية والاجتماعية دخلا فيه وما من حكومة من الحكومات خالية منه حتى أن طريقة تقسيم الاملاك لاتمسك الانسان فى الحقول وليس فى قوانين المواريث ما يظهر انه أسمى من غيره فقد خضعت لسلطان الهجرة حتى البلاد المتماسكة الاجزاء مثل فرنسا وانكلترا والمجر وروسيا والولايات المتحدة واوستراليا والارجنتين فان أصقاعاً كبيرة استعمرت منذ زمن طويل فى الولايات المتحدة ولاسيما ولايات انكلترا الجديدة قد خضعت لهذا النظام فترك أهلها قراهم لينزلوا الحواضر يسكنونها فنمت بذلك المدن نمواً هائلا بالنسبة لمجموع البلاد فقد بلغ سكان مدينة بونس ايرس عاصمة الجمهورية القضية مليوناً وثلثمائة الف فى حين بلغ سكان جميع هذه البلاد ستة ملايين نسمة تدخل فيها العاصمة ومساحة أراضى الارجنتين خمسة أضعاف مساحة فرنسا وهكذا تجد النمو بادياً فى مدن الولايات المتحدة كنيويورك وشيكاغو وفيلادلفيا وسانلوي وسنسيناتى وبوسطون وسان فرنسيسكو وستل وأورليان الجديدة كما هو باد فى ملبورن وسدنى من عواصم أوستراليا

هذا ما قاله أحد الاقتصاديين فى جريدة الاقتصاد وعقب عليه بقوله تحمل رؤوس أموال كثيرة من العالم القديم أي من أوربا تستثمر فى العالم الجديد فالمليون من الفرنكات يستثمر فى أرض فرنسا فيعود بربح سنوى يختلف بين ثلثمائة

أو مائتى ألف فرنك اذا حسبنا جميع الايدى التى تتناوله فنربح منه على حين لو جرت تنمية هذا المليون فى البلاد الاجنبية لا تعود من الفائدة بأكثر من ٤٠ الى ٤٥ ألف فرنك .

ان من يهاجر الى القاصية كمن يتركون قراهم ليستوطنوا المدن المجاورة يبحثون عن رفاهية أسمى مما تمتعوا به ويظنون بأنهم يحققون أمانيهم فى النجاح بانتقالهم الى محيط يصرفون فيه قواهم بما يعود عليهم بالنفع أكثر ومعنى ذلك يدور على البحث عن أجرة أكثر وهذا هو الباعث الاول على هذه النقلة بل الباعث الوحيد فالاجور هى العامل الوحيد الذى يدعو الناس الى التنقل فى عصرنا أما حب الهواء الجيد والحياة الاجتماعية ولطف الاخلاق وسلاسة العمل فليس لها محل من الاعراب فى جملة هذه الحال

ترى العامل فى الولايات المتحدة وأوستراليا يتنقل من المدن الى القرى وبالعكس لان الاجور واحدة فى الزراعة والصناعة وكلها رابحة والقاعدة العامة فى ذلك ان المدن والقرى تمسك السكان متى كانت أجورهم مضمونة وحالتهم مأمونة فقد قل المهاجرون من المانيا منذ كثرت صناعتها ونمت بحريتها وتجارتها ويقل المهاجرون من المجر وروسيا وايطاليا متى حسنت حالة الزراعة فيها وانتظمت أسباب التملك وجودت الاسباب الاقتصادية أي الاجور فاذا كانت البلاد الجديدة تستميل اليها المهاجرين بمئات الالوف بل بالملايين فذلك لانها توزع أجوراً عالية وأوربا وانكلترا وفرنسا واسبانيا وايطاليا وروسيا والمجر تبقى اليد العاملة فى الحقول اذا ارتفع سعر الاجور الزراعية وذلك لا يكون الا بتنويع الزراعة وتكثير المحاصيل والمواشى وتكثير الايراد ولو قلت أسعار الحاصلات

ان هولاندة التى نعتبر مجموعها أرضاً فقيرة لان فى استثمارها صعوبة قد كثر سكانها اليوم كثرة زائدة بفضل عملهم بحيث حق على الهولانديين ما قاله فرنكلين « بالقرب من رغيف الخبز يولد رجل » والمرء كلما دفعته الحاجة يحسن الاحتيال على المعاش وأميركا وأوستراليا الى اليوم لم تستثمر من أرضها خيراتها كلها بل ان خصبها هو المساعد فقط على العكس فى غربى أوربا فان العمل هو الذى يستثمرها وبعد فان المجتمعات لا تتحرك بالنظريات بل بالعمليات وكل نظرية تخالف المصالح

الحاصلة المبنية على العدل لا يتأتى أن تجرى فى العمل الا اذا جعلت هذه المصالح قيد النظر

الهجرة الى مصر (١)

اذا كان أصلى من تراب فكلها بلادى وكل العالمين أقاربى

دحا الله الارض ليعيش عليها البشر ويتناسلوا فيها فيعمروها ويحيوا مواتها ويسيطروا على المخلوقات كلها ، فالارض هى المنزل العام يجلس أهله فى أى ناحية منه أحبوها وراقهم . ويتنقلون في بقاعها وأصقاعها ، ووهادها ونجادها ، وسهلها وحزنها ، وبحرها وبرها ، على حسب ما تقضى أحوال الصحة ، وطبائع الاجسام ، وخواص النفوس .

فقد هاجر الفينيقيون قديماً وأقاموا قرطجنة ، عمروها وغيرها من شواطىء البحر الرومى ، وهاجر القوط من جرمانيا الى جنوبى أوربا وداهموا المملكة الرومانية ، وهاجر الروم من بلادهم الى شواطىء البحر المتوسط وجزره وشواطىء البحر الاسود وبلاده وعمروها . وكثير من الامم أمثالهم غادروا مساقط رؤوسهم ، واتخذوا لهم بلاداً ثانية استعمروها .

وهاجرت فى العهد الحديث أمم كثيرة ، وأهم هجرة وقعت هجرة الاوربيين الى أميركا ، عمروها بجنسهم الابيض بعد أن كانت خربة بالجنس الاسود . وكذلك هجرة الهولانديين الى جنوبى أفريقية وهجرة الروس الى سيبيريا ، وهجرة القافقاسيين والجراكسة الى البلاد العثمانية ، وهجرة الاسرائيليين من بلاد روسيا ، وهجرة المسلمين الروسيين الى أميركا وغيرهم .

وللعرب حظ وافر من الهجرة والتنقل فى الجاهلية والاسلام بل ان الهجرة من طبيعة جزيرتهم يعمدون اليها طلباً للكلأ والمراعى ، أو للاتجار بنتائج مواشيهم وحاصلاتها ، وأول هجرة فى الاسلام كانت هجرة عشرة من الصحابة وأربع نسوة وقيل أكثر أمرهم الرسول بالهجرة الى الحبشة لما رأى ما يصيبهم من البلاء قائلا :

(١) نشرت فى المجلد الثانى من مجلة المقتبس (١٣٢٥ — ١٩٠٧)